نداء الروح

تأليف
الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار ابن كثير

نِدَاءُ الرُّوح

○ الموضوع: لغة عربية
العنوان: نداء الروح
تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطبعة الأولى

1437 هـ - 2016 م
ISBN 978-614-415-166-2



○ الطباعة: مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
○ الورق: أبيض / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
○ القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 176 / الوزن: 460 غ

دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني . جادة ابن سينا . بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر . خلف دبوس الأصلي . بناء الحديقة - تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

نداء الروح

تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار ابن كثير




بسم الله الرحمن الرحيم




الإهداء

إلى الفتية الذين يحملون الحق ويعيشون له . . .

إلى الفتية الذين سينتصفُ بهم الحق يوماً . . .

وأظن أن ذلك الوقت مهما بَعُدَ فهو قريب . . .

ومهما امتدَّ فهو آتٍ . . .

إلى طلاب الحقيقة أنّى كانوا . . . أقدم نداء الروح

المؤلف



المُقدّمة

للأستاذ الفاضل الدكتور عبد الكريم زيدان

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد غشِيت البشرَ في عصرنا الحاضر موجة هائلة من المادية القاسية ، سدت عليهم منافذَ الجانب الروحي من كيانهم ، ولفّتهم ظُلمةٌ صاروا معها لا يستبينون طريقَ الحق ولا معالمَ الصواب. ولا يزال ركبُ الإنسانية موغلاً في سيره في هذا الدرب المظلم ، مستسلماً لهذه الموجة المادية الطاغية . .

ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن أعظم ما يمتاز به عصرنا الحاضر هو تضخم الجانب المادي في الحياة البشرية مع ضمورٍ هائل في الجانب الروحي من هذه الحياة. . . ولا يمكن للإنسان أن يحيا حياة طيبة ويَسعدَ في عيشه إلا إذا أعطى كلَّ جانب (الروحي والمادي) حقه من الرعاية والاهتمام. وبهذا وحده فقط يكون الإنسان إنساناً سَويّاً قادراً على تحقيق الغرض الذي خُلق من أجله ، منسجماً مع هذا الكون الفسيح الذي هو جزء منه ولكنه جزء ممتاز جداً هو أشرف ما فيه ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء]. ونحن إذا تلمسنا أسباب هذه الحالة التي أتينا على ذكرها آنفاً ، ألفيناها ترجع إلى علة أصلية هي (شرود الناس عن ربهم ونسيانهم إياه وجهلهم به). ولهذا فإن من أنفع وأجلِّ وأفضل ما يقوم به

المسلم اليوم ما يبذل من جهدٍ في تذكير الناس بربهم وتعريفهم به وردّهم إليه عن طريق الكتابة والمحاضرة والمناقشة والدرس والتأليف والمجادلة بالتي هي أحسن . . . إلخ .

ونحن نعترف أن هذا المطلب ليس بالمطلب اليسير ـ لأسباب مختلفة ليس هنا محلُّ بَسطها وتفصيلها ـ ولكنه على كل حال ليس بالمستحيل ، وكل صعبٍ يهون ، وكل عسيرٍ يسهلُ مع العملِ الدائم والجهد المتواصل ، والنيةِ الصادقة التي لا تتلفت إلى المغانم وإلى ما في أيدي الناس . . . ومما يعين في تحقيق هذا المطلب أن في الكيان الإنساني فراغاً لا يسده إلا «الإيمان بالله تعالى» ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] ، هذا وإن المتأمل يرى أنْ لا شيء في الوجود أظهر من وجود الله تعالى ، ولا شيء أكثر أدلةً تدلّ عليه من الله تعالى . . . ولا ينقضُ قولنا هذا وجودُ المُنكرين وثرثرةُ الجاحدين لأن الإنسان قد يُنكر الواضحات لانتكاس بصيرته أو عَماها أو للحجاب المضروب عليها ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] .

والأدلة على وجود الله تعالى بلغت حداً من الكثرة يصعب حصرها في عَدٍّ أو إحصاء ، فما من شيء في العالم إلا وهو ناطق «أن لا إله إلا الله» ولكن الإنسان ظلومٌ جَهول كفور ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ [عبس] يمر على الآيات وتصدمه الدلالات البينات فيغمض عينيه لئلا يراها أو يمر بها وهو عنها مُعرضٌ وبغيرها مشغول ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف] .

ولكثرة الأدلة على وجود الله تعالى كان كفر الإنسان وجحوده وتمرده على ربه بالغاً أقصى حدودِ القباحة والشناعة والفظاعة مما جعل جزاءه

الخلود في النار كما نطق بهذا القرآن الكريم في أكثر من آية. . . والدليلُ لا يُشترط فيه أن يكون على شكلٍ خاص أو من نوع خاص أو على طريقة الفلاسفة وأهل الكلام، وإنما كل ما يُشترط في الدليل أن يكون واضحاً صحيحاً موصلاً إلى المدلول. . . وأحسن الأدلة ما جاء ذِكْرُها في القرآن الكريم وهي في جملتها تقوم على النظر في مخلوقات الله تعالى والتفكرِ فيها والاستدلال بها على خالقها: الربّ جلَّ جلاله وحكمته وقدرته ورحمته وصفات كماله لا سيما في زماننا الحاضر حيث وقف الإنسانُ على دقائقِ خِلقةِ المخلوقات وعجائب تركيبها وصنعها . . . فإذا ما آمن الإنسان بربه جَرّهُ هذا الإيمانُ إلى الإيمانِ بالنبوات وباليوم الآخر، ونبوة محمد ﷺ واتِّباعِ ما جاء به من ربه.

وتفصيل هذا هو أن من يؤمن بالله تعالى وحكمته ورحمته لا يمكنه إلا أن يؤمن بأنَّ الله تعالى لا بدّ أن يُرسلَ رُسلاً للناس يوضِّحون لهم السبيل ويرشدونهم إلى الطريق القويم. أي يبينون لهم كيفيةَ السير في هذه الحياة والنظام الذي يتبعونه، لأن الربَّ جل جلاله الذي لا يغفلُ عن أصغر مخلوق في الكون بل يُلهمه ما يصلح له وما به كمالُه، لا يمكن أن يغفل عن الإنسان ويتركه هملاً دون بيان لما يصلح له ودون كشفٍ عن معالم الحق والصواب، ولا يقال إن العقل يكفي لهدايته، فالعقلُ وحده لا يستقل بهذه المهمة وإن كان ضرورياً لتفهم ما يلقيه الله تعالى إليه على ألسنة رسله. والقولُ بخلافِ ما ذهبنا إليه تنقيصٌ في حق الله تعالى وعدم تقديره حقّ قَدْرِه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] فالله تعالى يرد على مُنكري النبوات ويجعل إنكارهم هذا تنقيصاً له سبحانه وتعالى، وعدم تقديره حق قدره وجهلاً به وبصفاتِ كماله وما تستلزم هذه الصفات من إرسال رسلٍ للناس.

فإذا آمن الإنسان بربه وبأنبيائه ورسله آمن باليوم الآخر حتماً؛ لأن

إرسال الرسل يستلزم حتماً أمراً ونهياً وبالتالي طاعةً وعصياناً من البشر ، وبالتالي لا بد من حسابٍ على هذه الطاعة وهذا العصيان. ولما كان الحسابُ والجزاء لا يأتيانِ إلا بعد الفراغ من أعمال الإنسان ، وأعمالُ الإنسان لا تتم إلا عند موتِ الإنسان فلا بد إذاً من حياةٍ أخرى للإنسان ليلقى حسابه وينال جزاءه وهذا هو اليوم الآخر. فإذا تبين هذا ـ وهو بيِّنٌ بحمدِ الله تعالى ـ فإنكار اليوم الآخر تنقيصٌ بقدر الله تعالى وتنقيصٌ بصفاته الكاملة يتعالى عنه اللهُ تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون] فالله تعالى يرد ظنَّ مَنْ يظن أن البشر يُتركون هملاً بلا أمرٍ ولا نهي أي بلا إرسالِ رسلٍ إليهم ، كما يرد ظن مَنْ يظن أن البشر لا يرجعون إلى الله تعالى.

فإذا آمن الإنسان بربه وباليوم الآخر وبالنبوات فلا بد أن يؤمن برسالة محمد ﷺ لأنه ما من دليل يقام على إثبات نبوةِ نبي أو رسالةِ رسول إلا وهذا الدليل أكبرُ وأوضحُ منه موجودٌ في إثبات رسالة محمد ﷺ ، ولولا التعصبُ الذميم وإلفُ العادات وما يتوارثه الأبناء عن الآباء لآمن الجميعُ بنبوةِ ورسالة محمد ﷺ لا سيما ومعجزته «القرآن الكريم» باقيةٌ موجودة بين أيدي الناس بخلاف معجزات غيره من الرسل.

فإذا آمن الإنسان بربه وباليوم الآخر وبالنبوات وبرسالة محمد ﷺ اقتضاه هذا الإيمان أن يَتَّبعَ هدى الرسول ﷺ وما جاء به من ربه ، إذ لا معنى للإيمان بالرسول بدون طاعته ، واتباع ما جاء به. فإذا فعل الإنسان هذا يكون عند ذاك قد أعطى لجانبه الرَوحي حَقَّهُ من الرعاية والاهتمام ، ولجانبه المادي حقه من الرعاية والاهتمام. فيكون إنساناً سوياً قادراً على تحقيق الغاية التي خُلق من أجلها منسجماً مع الكون ، سعيداً في عيشه.

وبعد ، فهذه مقدمة قصيرة أقدم بها كتاب «نداء الروح» للأخ فاضل صالح السامرائي الذي كنتُ ألمح فيه منذ سنين من علائم الإيمان ما جعله قريباً إلى قلبي. ولا أزكي على الله أحداً.

إن هذا الكتاب يضم أبحاثاً جيدة ونافعة إن شاء الله تعالى في الإيمان بالله تعالى ، واليوم الآخر ، وإثبات وجود عالم روحي غير عالمنا المادي ، وأن الإنسان مادة وروح. كل هذا وغيره كتبه المؤلف بأسلوب واضح جذاب مع نقولٍ من كتب مختلفة تؤيد ما ذهب إليه. وحسب المؤلف أن يثيبه الله تعالى أجراً على نيته وجهده في إخراج هذا الكتاب سواء رضيَ الناسُ عنه أم سخطوا ، فما ينبغي للمسلم أن يعمل لمرضاةِ الناس أو سخطهم.

وإني أدعو الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب سبباً إلى هداية مرتابٍ وزيادةٍ في يقينِ مؤمن ، وإزالة لِشُبهة ، ورَدٍّ لِمُبْطِلٍ أو باطل ، وكشفٍ لتلبيس ، وتثبيتٍ لمسلم ، وأن ينفع به كاتبه وقارئه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. والحمد لله رب العالمين.

٢٧ ربيع الأول ١٣٧٨ هـ

١٠ تشرين الأول ١٩٥٨ م

عبد الكريم زيدان



مقدمة المؤلف

لم يكن يدور بخلدي أن هذه الصفحات التي بين يديك ستكون يوماً ما كتاباً ، بل لم أكن آمل أن أسجل هذه الصفحات ، حتى جاءني خطاب من أخ عزيز يستحثّني أن أكتبَ ثماني محاضرات في الإيمان بالله واليوم الآخر. وقد حاولت أن أتخلص بشتى الأعذار فأبى إلا أن يكون ذاك ، فكنتُ عند رغبته. ولما انتهيت من إعداد ما طلب إلي في حوالي أربعين صفحة من القطع الكبير خطر ببالي أن أزيدها وعزمت على ذلك فكان هذا الذي بين يديك.

وكلنا يعلمُ سَعةَ هذا الموضوع ، فمن العسير أن نُلِمَّ بأطرافه إن لم يكن من المستحيل ، ونحن لن نطرق إلا القليل منه وذلك لأشياء تقع في حوزتنا وأخرى خارجة عن إرادتنا.

ومعذرة إلى القارئ إذا أحسَّ من قراءته لبعض الموضوعات كأنه يقرأ محاضرة أُعدت للإلقاء. إذ إنني لم أجد في نفسي حافزاً قوياً يدفعني لتغييرها.

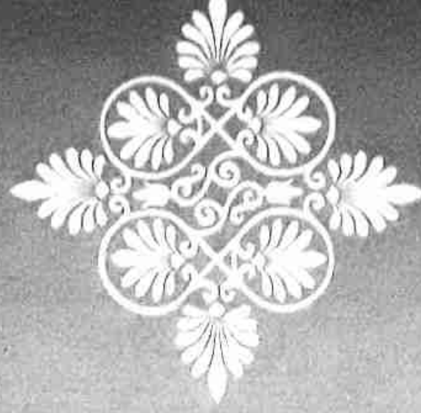
وقد حاولت أن أجعل الأسلوب مبسطاً قدر الإمكان يفهمه كل أحد.

وقد ذكرت فيه «لوامع الأدلة العقلية» وأشهر البراهين الكلامية. ولعله يرى القارئ أني حينما بحثت في أدلة المتكلمين قد تحررتُ بعضاً ما من دقةِ تعبيرهم واختصرتُ جهدي ، وآثرتُ ذلك ليفهمه كل قارئ ، خاصة

وقد أُلقيَ في روعِ الناس أن أدلة المتكلمين لا يفهمها إلا مَن كان له إلمامٌ بعلمهم ومصطلحاتهم ، فأصبح الخوضُ فيها أمراً عسيراً. وأنا أعلم أنني قد لا أَسْلَمُ من نقد الناقدين ولكن الذي يُثلج صدري أنه بسطتُ ما استطعت تبسيطه ليلمّ به كل أحد مبتغياً به وجه الله وحده.



المبحث الأول



المدخل إلى المبحث

إن البحث في الإيمان بالله وباليوم الآخر بحث قديم ، طرقته الإنسانية منذ القديم ، ولا تزال تتشوفُ إليه وتتحدث فيه وتتلذذ بكل ما يضفي على هذا البحث نوراً ساطعاً ودليلاً مقنعاً وستظل كذلك ، لَهفةً إلى الحقيقة مُتعطشةً للوصول إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها على الرغم من تكاثر البراهين وتوافر الأدلة .

وإن الإنسان إذ يفعل ذلك فإنما يفعله استجابة لما غُرس في نفسه ، ونداء لما جُبِلَ عليه . وإن ذلك لدليلٌ قوي على أن الإنسان «لا يقوم وحده» في هذا الوجود ، وأن الإنسانية في هذا البحث الطويل كناشدِ الضالةِ يستخبرُ الأثرَ ويتسمع الخبر .

وما كان هذا الكتاب ولا آلاف غيره ليوقفَ هذا التشوُّفَ ويجعلها مسألة نهائية ـ وإن كانت كذلك ـ البحث فيها مفروغ منه ، ولو قدم كل ما يمكن تقديمه من الحجج . بل ستبقى أبد الآبدين الحقيقة التي تقبل إنتاج الدهر كله في هذا المضمار ، وتَسَعُ كل ما قيل ويقال من الأدلة والبراهين ، ومع ذلك سيبقى البحثُ فيها جديداً وكأنه غير مطروق .

فيا لها من حقيقة كبرى خالدة!

الإيمـــان

من الحق أن نبين أننا لسنا نعتمد في إيماننا على دليل مخصوص أو برهان محدود ، بحيث إنْ نُقض أو انتقض ، انتقض إيمانُنا تَبَعاً له. . .
الواقع أن إيماننا أبعد من ذلك وأعمق ، وهو يعتمد أول ما يعتمد على تيسير الله بما يقذفه في قلبِ المرء من نورٍ واطمئنان إذا ما سلك طريق الحق وحرص على بلوغ الحقيقة ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت] أما الأدلة والبراهين فهي لا تنفع إلا الراغبَ في معرفة الحق.

ونعتمد ـ ثانياً ـ على التفكير في مخلوقات الله ، التفكير العميق الطويل وذلك أدعى لأن يأتي بالإيمان ، وأدعى لأن يرسخه في العقول والنفوس. وهذا هو الأسلوب الذي سلكه القرآن الكريم في إثبات وجود الله تعالى وما يستحق من إفرادٍ بالعبادة.

ومن طلب الإيمان بغير هذين فقد ركب مركباً صعباً ، ومن اعتقد أن الإيمان لا يأتي إلا عن طريق الأدلة العقلية والبراهين المنطقية فقد ضَيّقَ موسعاً ، وما هو بعائد منها إلا بالنزر اليسير. وعلى هذا فقد يكون إيمانُ العامة أقوى من إيمان المتكلمين ومُصَنِّفي الأدلة أنفسهم ، فهم ـ كما يقول الإمام الغزالي ـ إيمانهم كخيطٍ معلّقٍ في مَهبّ الريح يَثبتُ مرةً ويضعفُ أخرى.

فاعتمادنا أولاً على رحمة الله سبحانه.

ولا ينبغي أن ننسى ما للعباداتِ من بالغِ الأثر في تركيز الإيمان في الأفئدة ، لذلك نرى الله سبحانه يعقب في محكم آياته حينما يتكلم على العبادات بقوله : ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام] ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة] وما إلى ذلك.

حاجة النفس إلى الإيمان

ما أحوجَ المرء إلى إيمان بالله يورثه الطمأنينة في حياته ، والسكينةَ في نفسه ، والقوةَ في قلبه وشخصيته ، ويجد فيه السند الأصيل لذاته . لذلك نرى بعض العلماء الأكابر من الغربيين مَنْ يُفَضِّلُ الإيمانَ ولو بالحجر على أن يبقى الإنسانُ ملحداً. ويعزو كثيراً من تذبذب الشخصية إلى تذبذب القلب في الإنكار والجحود. فقد قال الدكتور «هنري لنك» ـ وهو أحد رجال علم النفس التجريبي المشهورين بقيَ ملحداً سنين طويلة حتى عاد إليه الإيمان بالله ـ في كتابه «الطريق إلى السعادة» ص ١٧ :

«وقد استخلصنا من هذه الاختبارات نتيجة هامة ، ولو أنها لم تُنشر في التقرير النهائي، وهذه النتيجة هي أن كل من يعتنق ديناً أو يتردد على محل العبادة تكونُ شخصيته أقوى وأفضل ممن لا دينَ له أو لا يزاول أية عبادة» .

وقال أيضاً في ص ٦٠ «إذ إنه مهما بلغت المعتقداتُ من السخافة ، فهي أفضلُ من عدم الاعتقاد في شيء على الإطلاق» .

فالملحد لا يجد إلا فراغاً هائلاً في نفسه ، وهُوةً سحيقة في قلبه . وتكاد الحيرة تمزقُ فؤاده ، وتطير بلبِّهِ ، فهو يودُّ أولاً لو يتأكد من وجود حياة أخرى مثلاً ، بل يتمنى وجودها على الأقل ، لأن الإنسان يرغب في البقاء ويحب الخلود. وهو ثانياً ليس عنده دليل في نفسه ، أو ليس بمتأكدٍ من وجود تلك الحياة ، فهو يخشى إن تَزَهّدَ في معيشته ، وامتنع عن شهواته ألا يكون هناك يوم آخر فيكون قد أضاع حياته ـ كما يظن ـ سُدى ، ويكون قد خسرَ أثمن شيء لديه. كما يخشى إن انحدر في مهاوي الرذيلة ، وغطس في حمأة الشهوة أن يكون هناك يوم آخر يحاسب على أعماله ، وتكون نتيجته العقاب الأبدي.

وهو لا يملك برهاناً على عدم ذلك ، بل إن موحيات الحياة قد تضطره إلى الإيمان أحياناً أو التفكير على الأقل في شأنها ، وبذلك يكون قد وصل إلى درجة من الحيرة قاتلة. لذا تراه يبعد هذا التفكير عن نفسه إبعاداً ، ويتغافل عنه إنْ وجد صيحتَهُ في نفسه ، ويتعامى عنه إن رأى موحياً بذلك. ونفسهُ دائمة الإلحاح عليه تعرض ما يثير الريبة عندها وهو دائم التغافل والتعامي عن ذلك ، كالنعامة إنْ أحست أن الصياد أدركها تعامت عنه ووضعت رأسها في التراب. فهو يضع رأسه وقلبه ونفسه في الحياة وشهواتها متغافلاً عن صيحات نفسه ظاناً أنه نجا وما هو بناج. واقرأ بعد ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج]».

حجتنا أظهر

حججنا ـ نحن الربانيين ـ أظهر من حجج المنكرين ، بل إنه ليس عندهم حجج في الإنكار سوى التخمينات والحدس. وجُلُّ ما عندهم أن يمسكوا براهين وأدلة المنطقيين ويناقشوها مناقشة هزيلة.

ومن أولى قواعد المنطق أن مَنْ حفظَ برهاناً حجةٌ على مَنْ لم يحفظْ. بل إن طرفاً من براهيننا مستقاة منهم أنفسهم ، فهم حجتنا عليهم ، وهم لا يستطيعون إلا أن ينقضوا نظرتهم بأعمالهم وأنفسهم ، فهل رأيتَ بربك أكبر برهاناً ، وأعظم حجة من أن الماديين يقرُّونه بأعمالهم ويُجرونه بأفعالهم؟

أليست لهم عواطف؟ ألا تثور؟ أو لا تتحرك؟!

هل هذه العواطف مادة؟!

إنها لا تُحَدُّ بحدودِ الزمان والمكان . .

ثم هم هؤلاء الماديون ، وحَمَلَةُ الأفكار المادية ، ألا يَدَّعون أنهم مُبَرَّؤون من الغرض؟ أليسوا يدعون النزاهةَ؟ ألا يزعمون أنهم أبعدُ من أن يكونوا عبيدَ الحكوماتِ والأموال؟ !

ثم هم أنفسم ، أَلا يَصِمُونَ الجماعات الأخرى بوصمةٍ مَعيبة ، بل معيبة جداً كما يقولون ، يصمونهم بأنهم عبيدُ الأموال التي تزودهم بها الحكومات؟ !

إنها أكبر طعنة يوجهونها إلى الجماعات الباقية ، وهي في نفس الوقت أكبر طعنة يوجهونها في صميم فكرتهم المادية. كان عليهم إخلاصاً لمبادئهم المادية أن يكونوا هم عبيد الأموال ، لأنه هو الدافع الوحيد كما يزعمون. كان عليهم تمشياً مع نظرتهم أن يفضلوا أكثرَها نفعاً لهم ، وأكثرُها نفعاً أكثرها مالاً .

إنهم حين يبرئون أنفسهم يخونون دعوتهم ويطعنونها في الصميم .

وحين يُسجنون ويقضي أحدهم حياتَهُ في السجن وقد لا يحصل على شيء من المادة ، بل قد يُضحي بما عنده من منصب ومالٍ مفضلاً السجن ، يكون قد نعى مبادئ فكرته ومشى بها إلى حتفها .

إنهم ينكرون غير المادة ، فلا وجود لغيرها مطلقاً. ولكن إنْ سألتهم ما الجاذبية؟ وما الكهربائية؟ وما هي قوة المغناطيس ، فماذا عساهم يجيبون؟! بل ماذا سيجيبون ، إن كانت هذه الذرة وهي أصلُ العناصر تتحول إلى طاقة وتأتي بالأعاجيب؟

إنها حين تحطم سجنها المادي تكون أقوى أثراً وأكبر خطراً. وهذا شأن كل مَنْ يحطم سجنه المادي ، ضربه الله مثلاً من الذرة الصغيرة إلى المصلح العظيم .

أمَّا حججنا فتقتضيها أفعالُ الإنسان وقواعد المنطق ومبادئ العقل السليم وفطرة الإنسان نفسه. وناهيك بحجج إذا ضاق المنكر بنفسه وأصابه الضر والجزع ، فإنه يخرجُ صوتُ فطرته رغم أنفه باحثاً عن الله تعالى ، باحثاً عن تلك القوة التي تطلب فطرتُه منها العونَ.

فما أظهره برهاناً يلجأ إليه المنكر ذاته!

وسائل الماديين وضعفها

يعتمد الماديون في الإنكار والإيمان على حواسهم ، وما تصل إليه أدواتهم وأجهزة معاملهم في المختبر ، على ما في طبيعة الحواس من نقص وعجز لا ينفع معه المختبر وأدواته ، ناهيك عن أخطاء الحواس فيما تصل إليه. فأدوات المختبر من شأنها أن تكبّر وتوضح أو تقرّب ما يمكن أن تحسه الحاسة بطبيعتها كأنَّه صغير الحجم مثلاً دقيق الصنعة ، وليس من شأنها أن تُري العين ما ليس من طبيعة العين أن تراه. فكل ما كان مخلوقاً بحيث إن طبيعة العين وتركيبها وعدستها لا يمكن أن تراه فعدسات المجهر وأدوات المختبر لا يمكن أن تريه للعين. فالخليَّة مثلاً يسهل على المختبر أن يكبّرها كثيراً ، ويوضحها جلياً ، ويُري حركاتها وسكناتها ولكنَّه ليس من الممكن أن يري الحياة المسيطرة على الخلية ، والتي تؤثر فيها التأثير كله. وكل عدسات المختبرات وأدواتها لا يمكن أن تُظهرها لأنه ليس من طبيعة العين وتركيبها أن تراها.

إن المُقرّبات وعدسات التلسكوبات وآلات وأجهزة الرصد ، يمكن أنْ تُرينا كثيراً من النجوم الغابرة والتي لا يصل نورها إلى العين ، ولكن هذه الآلات والأجهزة عاجزة عن أن تُرينا الأشعة فوق البنفسجية وأمواج

الأثير وبعض الأمواج الضوئية الأخرى التي تملأ الوجود ، بل وهذه كلها عاجزة عن أن ترينا الكهرباء أو ترينا المغناطيسية ، وعاجزة أن ترينا الجاذبية التي تسيطر على الأجرام.

وما يَصدُقُ على حاسة البصر يصدق على حاسة السمع. فمكبّرات الصوت يمكن أن تزيد في درجة تكبير الصوت حتى أن غير المسموع منه لِخُفوتِه أو لِبُعدهِ تُسمعنا إياه، ولكن هذه وغيرها من الأجهزة لا يمكن أن تسمعنا ذبذبات الصوت التي لا تستجيب لها الحاسة بطبيعتها. وأن هناك في الكون كما يقول العلماء الباحثون أصواتاً غير مسموعة تملأ الوجود لا يمكن أن نسمعها لأن درجة تذبذبها لا يمكن أن تستجيب لها الحاسة.

فانظر إلى عبث هؤلاء حينما يريدون أن يقحموا في المختبرات ما ليس من طبيعته أن يدخل تحت العدسة أو بين الآلة.

وإن من هؤلاء الماديين طائفة صاحبة فلسفة خاصة، تذهب أبعد مدى من ذلك ، تُنكر الأخلاقَ والروح والرب! لأنها لا تدخل في المعمل.

فهي تريد ـ كما قال بعضهم ـ أن تُدخلَ الصدقَ في المعمل وتقيسَ حجمه وشكله وطعمه وذوبانه في الماء وتَبلْورَهُ وقابليته للاشتعال مثلاً! ولما كان هذا ليس من الممكن طبعاً فلْتُنكِر الصدقَ ولتبعده من حسابها ولتنكر معه جميع الأخلاق.

ومن تَخطِّي هؤلاء لحدودهم خرجت نظريات عدة حاولت أن تفسر سلوك الإنسان وعواطفه تفسيراً مَعْملياً ، إنهم أنكروا الروح لأنها لم تخضع لحد الآن لمختبراتهم وما أهون ذلك عندهم ، ولكنهم ماذا يفعلون في العواطف والانفعالات واستجابات الغرائز كالحزن والخوف والغضب والفرح وما إليها؟

إنها موجودة وليس بوسعهم أن ينكروها ، إلا أنهم كيف يستطيعون

تفسيرها تفسيراً لا أقولُ ترتاحُ إليه نفوسهم (فهم ينكرون النفس) بل ترتاح إليه أجهزة معاملهم؟

يقول العقلاء من خَلْقِ الله: إنَّا نسمع خبراً محزناً يثير نفوسنا وتجيش له عواطفنا ويَسْتدِرُّ مدامعنا فنبكي. ويقولون هم: ماذا؟

يقولون «إننا نبكي أولاً ومن البكاء تنشأ عاطفة الحزن، لسنا نحزن فنبكي ولكنا نبكي فنحزن» ولست أدري أيبكون أيضاً لتنشأ عاطفة الفرح، فالإنسان يبكي أحياناً من الفرح فماذا يقولون؟

آلبكاء الذي أنشأ الحزن أنشأ الفرح كذلك؟ إنها حركة جسدية واحدة فَلِمَ كان الاختلاف؟ وعَلامَ نبكي فنحزن لأمرٍ ما ولا نفرح كما يزعمون؟!

إنها العاطفة يا هؤلاء تجعلنا نضحك في الفرح ونبكي له كذلك، وتجعلنا نبكي من الحزن ونقهقه له ساخطين.

«ويقولون أيضاً: إنني رأيت الأسد فجريتُ فنشأ الخوف من ذلك، لا إنني خِفتُ فجريتُ»[1] ولعلهم لا يدرون أنَّ من الخوفِ ما يوقفُ صاحبه فلا يتحرك.

هذه هي تفاسيرهم للعواطف والانفعالات كما تدل عليها كتاباتهم وشروحهم، إنها تنشأ من حركات جسدية خالصة.

الحـــواس

قلنا إن الماديين لا يؤمنون إلا بما تصل إليه حواسهم، وينكرون كل ما لا يقع تحت سلطان الحواس، وبذلك ينكرون أحكام العقل إن اقتضت وجود موجودات لا تصل إليها الحواس، وهذا خطأ محض،

(١) انظر «الإنسان بين المادية والإسلام»، ص ٥٦.

فالعقل قد يستدل على وجود الموجودات بتأثيرها وخواصها ، وذلك كما استُدِلَّ على وجود الكهرباء والمغناطيس وغيرهما .

ثم متى رأى الإنسان جميع المواد؟ إنَّه أقر بوجود الهواء قبل أن يراه ، «واعترف العلماء الفلكيون بوجود كوكب رفيق الشعرى قبل أن يراه «إلفن كلارك» ودون أن يروه هم أنفسهم ، وكان دليلهم على وجوده اليقيني هو انجذاب كوكب الشعرى نحوه، والجذبُ من الخواص الميكانيكية للمادة فاستنتجوا أن هناك كوكباً خفياً يجذبه» وهذه هي أحكام العقل الصحيحة .

ثم هم هؤلاء الماديون ـ كما يقول أحد العلماء ـ «هل رأوا المادة؟ ومتى رأوها؟ هل رأوها بعيونهم ولمسوها بأيديهم؟ إنهم ما رأوها ولن يروها ، وما لمسوها ولن يلمسوها ؛ لأن الإحساس سواء كان بالرؤية أو باللمس لا يتعلق بنفس المادة بل بأعراضها. فالرؤية تتعلق باللون دون الملوّن الذي هو الجسم ، واللمس يتعلق بالحرارة والبرودة والخشونة والنعومة دون الجسم. فمن إحساسِ هذه الأوصاف والأعراض يدرك العقلُ وجود الموصوفات» أي إن الإنسان يعرف المادة بخواصها، فبالرؤية لا يتمكن أن يرى نوعَ المادة. فلو عُرضت عليك قطعتان من الشَّبِّ ومن حامض الليمون المتبلور فإن الرؤية لا تُسعفكَ وحدها بأن تتعرف على هاتين المادتين على ما فيهما من اختلاف كبير في التركيب، وإنها لا تزودك إلاَّ بأنهما قطعتان بيضاوان متشابهتان، كما أنك لو لمستهما لما استطعتَ أن تميِّز بينهما حتى ولا بين قطعة صغيرة من رخام متبلورة. فاللمسُ لا يسعفك إذن إلا بأن تعرف خشونةَ هذا ونعومة ذاك، وحرارته أو برودته .

وما لنا نذهب بعيداً في تقرير الحقائق حتى كأننا في أمور فلسفية غامضة؟ الآن وفي مثل هذا العصر وبعد أن رفعوا الحصار عن الذرة وعرفوها وأدركوا طرفاً من كُنْهِها ، ماذا وجدوا فيها وعلى ما تحتوي في

داخلها؟ إنّ نتيجة هذا التحليل ـ كما يقول المختصون ـ انتهت إلى أنه ليس للذرة تركيب مادي تتقوم به ، وإنما هناك مجالات كهربائية وشحنات سالبة وموجبة ليس غير ، ولم يعثروا فيها على شيء مادي مطلقاً. فالذرة أصلُ العناصر ، وهي نفسها خالية من التركيب المادي. إذن ، فليس هناك شيء اسمه مادة وإنما كل ما هنالك شحنات ومجالات كهربائية موضوعة ومنظمة بشكل خاص. وهاك ما يقوله الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (الدين) ص ٨٢ :

« . . . ذلك أنه بعد أن وقف التحليل دهراً طويلاً عند الذرة Atom على أنها هي الحد الأدنى الذي لا يقبل الانقسام ولا الفناء ، والذي يحتفظ بكتلته وخصائصه تحت تأثير كل القوى الطبيعية ، وفي أثناء جميع التفاعلات الكيميائية. أصبحت اليوم هذه الذرة نفسها عالَماً معقداً ، مركباً من نواة جامدة وغلافٍ يدور حولها كما تدور السيارات حول الشمس ، وتبين أن هذا الغلاف الذي هو جزء من تركيبها ما هو إلا شحنة كهربائية سالبة electron مجردة عن كل حامل مادي ، وإنه يمكن فصله عنها بقوة إشعاعية أو بتسخين هائل. بل تلك النواة نفسها ، التي كانت تُعدُّ إلى عهد قريب متماثلةَ الأجزاء ، أعني ذات قوة إيجابية فحسب proton قد ظهرت الآن مركبةً في دورها من نوعين من الكهرباء : موجب وسالب ، وثبت أنّه من الممكن تحطيمها وفصلُ أجزائها ، وأن القوة الإشعاعية الهائلة التي تُستنبط من هذا التحطيم يمكن استخدامها في إصلاح الكون وتعميره ، أو إفساده وتدميره.

هكذا تخلع الطبيعة ثوبها المستعار ، وتنكشف المادة عن أصلها الأصيل ، فإذا هي «طاقة» أي قوة مجردة ، يلزم البحث عن مصدرها خارج ذلك الهيكل المادي المحطم ، وذلك الصنم الساقط المهدم. وهكذا يقترب عالم المادة رويداً رويداً من عالم المجردات ، ويكاد

يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حَدِّهِ الأدنى ، كما اتصل به من جهة حده الأعلى ، وهو غيبٌ يؤمن به العلم وإن لم يَرَهُ ؛ لأنه يُحسُّ أثره ، ويكاد يلمس خطره ، أجل لقد أصبح العلم يؤمن اليوم بأن في الوجود قُوى لا ينالها الحس المجرد ، ولا الحِسُّ المجهز بأقوى المجاهر ، المزود بأدق المقاييس والموازين ، وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هي المعيار الوحيد الموجود ، وهكذا وضع بيده اللَّبِنَةَ الأولى في القاعدة التي تقوم عليها الأديان» .

فَلْتهنأ النظرياتُ المادية إذن بهذه الاكتشافات . إن مختبرها التي اعتمدت عليه وأَوْلتهُ الثقةَ كذبَها وحَطّمَ نظريتها .

ثم انظر إلى ما قاله ج. آرثر فندلاي في كتابه (على حافة العالم الأثيري) الذي تُرجمَ إلى أكثر من عشرين لغة ص ٢٧ : «إن من طبيعة الإنسان الدأب وراء معرفة أسرار الكون ، ولذا تابع العلمي بحوثه فوصل شيئاً فشيئاً إلى أن الحقيقة القصوى لا تزال أشدَّ استعصاء عليه من ذي قبل ، وإن هذا العلم(١) الفيزيقي الذي نظنه صلباً جامداً ليس كذلك، وهذا مثل من التصورات الوهمية الكثيرة التي تخطر يوماً ببالنا عن الحياة. . . ولقد استطاع الفيزيقيون اليوم أن يحطموا المادة ، ونراهم يعلنون أنّها تتألف من شحنات كهربائية متعددة، ومن ثم اختفت صلابتها .

«ومن ثم كانت طبيعة المادة وتكوينها مسألة استنتاجية فقط . إذن فَمِمَّ يتكونُ الكونُ المادي؟ الواقع إننا لا ندري ، ولكن هناك شيئاً واحداً بدأ الفكر العلمي يدركه ألا وهو أن الكون الحقيقي ليس هو الكون الفيزيقي. . . »(٢) . ويقول في ص ٣٨ :

---

(١) لعله العالم.

(٢) ص ٢٤ .

«إن المادة التي تبدو لنا صلبة ليست في الواقع صلبة أبداً ، وما نراه حين ننظر إلى منضدةٍ أو كرسي مثلاً إنما هو اهتزازات عدد ما من الإلكترونات وهي تدور بسرعة هائلة حول مركز يسمى النواة ، وتتألف المادة من ذرات ، وهذه الذرات تتألف بدورها من إلكترونات وبروتونات ، وتختلف المواد باختلاف عدد الإلكترونات التي فيها. أما الوزن فيختلف باختلاف عدد البروتونات».

عجز الحواس وأخطاؤها

قلنا إنَّ الحواس تعجز وتقصر عن أن توصل إلينا جميع الموجودات بله إن هناك أخطاء قد تقع فيها الحواس . . . فهي لعجزها وقصورها أولاً واحتمال وقوعها في الخطأ ثانياً لا يَصحُّ أن نوليها كبيرَ الثقة ونجعلها المصدر الوحيد لإيماننا وإنكارنا.

فالعين مثلاً مع أنها أظهر الحواس ، لا ترى الأجسام البعيدة كما لا ترى الأشياء الدقيقة والقريبة. فهي لا تتبين سطور الكتاب وكلماته وحروفه إنْ قَرَّبتهُ إليها تقريباً شديداً. إضافةً إلى أنه ليس كل ما لا تراه العين غير موجود ، فهي لا ترى اللوح الزجاجي الصافي ولا الماء الرائق في القدح مع أنهما موجودان. فانظرْ إلى جهلِ الذي لا يعتمدون إلا على الرؤية في الإيمان ويريدون أن يروا الله سبحانه.

بل الأمر أبعد من ذلك في حاسة البصر ، فإنه ليس كل ما تراه العين يقتضي الوجود. فحتى الذي تراه العين لا يُقطَعُ بوجوده. فالإنسان حينما يطول جلوسه في مكان ما ثم ينهض فإنه يرى خطوطاً زرقاء وملونة ، متجمعة على أشكال غريبة ، نازلة صاعدة في الفضاء. ويرى السراب

يحسبه ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ومن المعروف أنّ من الحمّى ما إذا اشتدّ وطؤها يُحِسُّ المصاب بأنه يرى أشباحاً يزعم أنها تُكلمه، وهناك بعض الحالات الهستيرية الشديدة «يرى المريض بها أشباحاً تهدده أو تَسخرُ منه أو تزعجه ويسمع أصواتاً لا وجود لها في حس غيره».

كما أن الإنسان إذا حدّق في شيء وأطال نظرته إليه يرى رسوماً مختلفة ودوائر متداخلة تتحرك أمامه. ويذكر علم النفس التربوي طريقة في خداع البصر يسميها (الطريقة الذاتية) وهي: أنّك إذا رسمت دائرة سوداء قطرها ١ سم مثلاً في حائط، وحَدَّقتَ النظرَ فيها طويلاً ثم التفتّ إلى حائطٍ غيره أو مكان آخر فإنك ترى النقطة نفسها على الحائط الآخر، وهذا من تضليل الحواس.

فليس إذن كلُّ ما لا تراه العينُ غيرَ موجودٍ ولا كل ما تراه العين موجوداً. ثمّ إن العين قد ترينا الصغير كبيراً والكبير صغيراً، فهي ترينا القمر أكبر من النجم، وترينا البنايات والأشياء البعيدة المتنائية جنب بعضها أو أمام بعضها أو بعدها مباشرة أو إحدى أماكنها، وذلك وَهْمٌ كله... وقد ترينا الساكن متحركاً والمتحرك ساكناً. فليس كل ما تراه العين متحركاً يلزم أن يكون كذلك، ولا كل ما تراه العين ساكناً يلزم سكونه. فالعين ترينا الأرض ثابتة والنجوم متحركة، وبذلك استدل الأقدمون بنظرتهم البدائية على حركة الأجرام السماوية. وربَّ أجسام متحركة تراها العين ساكنة لبطء حركتها الشديد أو لسرعتها الهائلة. فهي لا ترى حركة عقرب الساعة وحركة الظل، كما لا ترى حركة نمو الشعر ولا حركة نمو الصبي وكلها حركات مستديمة. وكما أنها لا تُحس الحركةَ البطيئة فهي لا ترى الحركة السريعة، إذ هي لا ترى حركة بعض آلات وعجلات المكائن وتحسبها ثابتة لسرعتها الهائلة والتي تبلغ أحياناً أكثر

من اثني عشر ألف دورة في الدقيقة الواحدة ، بل وقد لا ترى حركة (دوامات الصّبيان) التي يلعبون بها فتدور حول نفسها بسرعة كبيرة ، فهل يُعَوَّلُ بعد هذا على حاسة البصر فيما تصل إليه؟

أما الأذن فهي أضيق مَدى من العين ، فلا تسمعُ الأصواتَ البعيدة والخافتة. ولا تُسمعنا أصواتاً ذات تذبذب لا تستجيب إليه الحاسة بطبيعتها. فالكون كما قرره العلماء مليء بأصوات مختلفة إلا أنّنا لا نسمعها لأن الحاسة لا تستجيب إليها طبيعياً.

وكما أنها لا تسمع الأصوات الخافتة ، فهي كذلك لا تسمع الأصوات الشديدة الهائلة. ففي تفجر القنابل الذرية مثلاً ، يقول المُجَرِّبون إنهم لا يسمعون إلاّ الصرخة الأولى تصم آذانهم ولا يسمعون ما يجري بعدها من تفرقعات عظيمة وانفجارات هائلة مع أن آلات التسجيل تسجل أرقاماً عالية ، وتعليلُ هذا واضح يكاد يعرفه كل أحد ؛ فإن أوتار كورتي داخل الأذن معدودة تسمع درجة تذبذبات محدودة علواً وانخفاضاً ، شِدَّة وخُفوتاً. فكل صوتٍ درجةُ تَذبذبِهِ أكثر أو أقل مما تستطيع الأوتار أن تتأثر به فهو غير مسموع بالنسبة إلينا.

وقد تكون عدة أصوات متقاربة ، بعضها مرتفع وبعضها خافت وأنت لا تسمع منها إلا الصوت المرتفع ، حتى إذا هدأ الصوت المرتفع بدأتَ تسمعُ ما كان محجوزاً عن سمعك.

وهي بَعدُ كالعين ، فليس كل ما لا تسمعه غير موجود ، ولا كل ما تسمعه الأذن موجوداً. فالإنسان يسمع أحياناً هواتفَ في نفسه يُخَيَّلُ إليه أنها تدعوه ، ويسمع حفيفاً أو طنيناً قرب أذنه وهو ليس بموجود. وقد يصاب بمرض هستيري أو حمى شديدة يُخيل إليه فيها أنه يسمع أصواتاً تكلمه وأشباحاً تناجيه وهو بدوره يبادلها الحديث ويناجيها.

أما حاسة اللمس فهي أضيق مدى من الحاستين الأُولَيين ، وهي لا تكاد تعمل إلا بما يتصل بها اتصالاً مباشراً ، مختلفةً في ذلك عن البصر والسمع .

وأخطاء الحس في اللمس مشهورة يدرسها الطالب في مبادئ الفيزياء ومنها أنَّك إذا وضعت ثلاثة أوانٍ في أحدها ماء حار وفي الآخر دافئ وفي الثالث بارد ووضعتَ يدك في الماء الساخن أولاً ثم وضعتها في الدافئ أحسسته بارداً ، وإذا وضعت يدك في الماء البارد أولاً ثم وضعتها في الدافئ أحسسته حاراً. أما إذا انفك الجسم عن هذه الحاسة فهي لا تكاد تعمل شيئاً لضيق مداها .

وأما الذوق فهو أضيق من حاسة اللمس هذه ، فهو لا يتذوق إلا ما يلمس ، وليس كل ما يلمس يستطيع أن يتذوقه . فهناك مواد يقال عنها إنها عديمة الذوق أي لا تعمل فيها الحاسة .

وهذه الحاسة كأخواتها تُضلل صاحبها . فلو جئت بمادتين إحداهما صادقة الحلاوة والأخرى أقل منها ، وَطعمتَ الأولى وتبعتها بالثانية فإنك لا تعرف مدى حلاوة الأخيرة . ولو طعمت مادة ملحة وتبعتها بأخرى أقل منها ملوحة لأحسستها عديمة المذاق .

إضافة إلى أن هذه الحاسة شديدة التأثر ، ما إنْ أصابَ الإنسانَ حُمَّى إلاّ وأحسّ بها الماءَ العذبَ مراً علقماً .

بل إنَّ هاتين الحاستين (اللمس والذوق) ، لا تستطيعان أن تعملا في كثير من المواد لتأثيرها عليهما . فهناك طائفة من الحوامض (كحامض الكبريتيك والنتريك) وبعض المركبات الكيماوية لا يستطيع اللمس أو الذوق أن يعمل فيها لتأثيرها المُتلف .

أَفبعدَ هذا كله لا نؤمنُ إلا بما تصلُ إليه الحواس ، أم أن ذلك من جهل الجاهلين؟!

العقل

لا يقتصر شَكُّنا على الحواس فحسب ، بل نشك في كل ما هو بشري. فكما نشك في الحواس وما تزوده الحواس ، نشك كذلك في العقل وما يقرره العقل. نشك فيه من نواح عدة ، نشك في أنه كامل ، ونشك في أنه مُبرَّأ من الهوى ، ونشك في أنه قادر على أن يفهم كل شيء. ولا يناقض هذا التقرير ردنا السالف على الماديين بل يؤيّده ويسنده. فإنَّا كما نعرفُ للعقل قيمته ولا نبخسه حقه ونُنكر فضلَهُ ، لا ندعه يتخطّى حدوده ونغالي في قيمته فنقحمهُ ميادينَ هو بعيد عنها ونبدّد طاقته في خيالات يتخيلها.

فليس كل ما لا يعلمُ به العقل أو لا يعرفه ليس بموجود كما يذهب بعض المغالين. إنَّ حكم العقل صادر فيما تزوده به الحواس ، فإن زوَّدته بمواد ناقصة جاء حكمه ناقصاً ، وإن زوَّدته بمواد مَخْطوءة جاء حكمه خاطئاً ، وما أيسر النقص والخطأ فيما تُعدّه الحواس. أمّا فيما لا تُزوِّده به الحواس ، فالأَوْلى به إن كان يعرف قيمته أن لا يبُتَّ في شيء من ذلك وأن لا ينبني حكمه على الحدس والتخمين.

إنَّ العقل البشري ناقص. ودليل نقصه أنه يرتاب ويجهل ، ويشعر دوماً بالرقي نحو الكمال ويتطلَّع إليه. وهو بمرور الزمن تزداد تجاربه ومعلوماته فيتبدى له ما كان يجهله ، وينقض أحكاماً كان يعدُّها من المسلَّمات ، وقد يؤمن بما كان ينكره. وهذا كله دليل العجز والنقص.

والبشرية في دورها الطويل نقضت أموراً حَسبتها من المسلمات وآمنت بما كانت تعدُّه خرافة. ولا يزال العلم مستمراً في نقضه وإبرامه ، فما كان حقيقة الأمس أصبح اليوم نظرية قديمة ، ولعل حقائقَ اليوم يكون حَتفُهَا غداً. فأين الكمالُ في العقل البشري؟ ومن يزعم أن العلم وصل إلى غايته؟

قال فيثاغورس قديماً: إن الأرض متحركة والأجرام السماوية ثابتة، حتى جاء بطليموس فأنكر ما قاله فيثاغورس وقال: إن الأرض هي مركز الكون وهي ثابتة لا تتحرك، وكل الأجرام السماوية تدور حولها. وبقيت هذه حقيقة الحقائق المسلم بها حتى جاء غاليلو فرجع إلى ما قرره فيثاغورس.

وهذه الذرة ، قالوا عنها إنها الجوهر الفرد وإنها غير قابلة للتحليل ، فجاء العلم الحديث يثبت بطلان هذا الادعاء. فمن يدَّعي الكمال إذن؟ وهل يدَّعيه إلا مخرِّف جاهل؟

الحق أنه كما قال «هنري لنك» في كتابه «الطريق إلى السعادة» ص ٥٨ «كذلك البشر مُنِحُوا عقلاً ، مجالاته وصولاته محدودة بمعرفة مخلوقات الله ومنشآته المختلفة، أي محدودة بالكون الفسيح ، لأنَّه هو مجال المعرفة لا يتعدّاه العقل ، لأن معرفته جاءت وتجيء عن طريق هذا الكون فقط. هذا الكون المتسع وضعته قوةٌ عليا ، كحدٍّ أقصى لمعرفة جميع عقول المخلوقات البشرية ، لأنَّ تلك المعرفة في مجموعها لا تتعدى هذا الكون بحال، أي أنَّه وضع حداً لأقصى معرفة متجمعة. فإذا كان كذلك، فما تقدر مجموعة العقول البشرية إذا اجتمعت في صعيد واحدٍ أن تصل إلى معرفة أكثر مما وضع حداً لها ؛ لأنها تستمد تلك المعرفة من صور هذا الحد المختلفة. أي أنَّها لا تقدر ـ لو اجتمعت ـ على معرفة حدود واضعِ هذا الحد أو كيف وضع هذا الحد ، لأنها تقتصر على معرفة الحد

دون مُوجِده ، كالآلة التي تقتصر على معرفة القدرة الكهربائية دون معرفة أساس موجدها.

أي أنّ تلك القوة الموجودة العليا لا يمكن قطعاً معرفتها ـ حتى لو تمثلنا نهاية قصوى للمعرفة البشرية ـ متجمعة متحدة. وستظل مجهولة في كنهها وفي حدودها ، لأنه لا حد لواضع الحدود القصوى».

هذا من جهة ، أما من جهة أخرى فإنَّ الأهواء لازمة للعقل الإنساني لا تنفكُّ عنه ، وقد يكون لها الأثر الأكبر في توجيه الشخص والاستبداد به ، وقد تعزل أحكام العقل إلاّ ما كان يوافقها ، وهذا مما يزيده ضعفاً على ضعفه.

رأي في عقيدة التوحيد(١)

يعتقد الكثير أنّ عقيدة البشر الأولى هي العقيدة الوثنية ، على أية صورة كانت. وذلك يعود لجهلِ الإنسان المطبق بكل ما حوله. بينما يعتبر عقيدةَ التوحيد جِدَّ حديثة ، إذ التوحيد يحتاج إلى عقل مفكر وعلم واسع ، لذلك لم تخرج هذه العقيدة إلى حيّز الوجود إلاَّ بعد أن أخذ البشر يغترفُ من مناهل العلم والمعرفة ، وقطعَ حقباً من الزمن متطاولة. ومما يؤيِّد هذا الرأي الكثير من الاكتشافات الأثرية للعصور السالفة والتي عرفنا بها أن فكرة التوحيد كانت مجهولة لديهم.

ويحق لنا أن نبديَ رأينا إزاء هذا القول:

فالمؤرِّخون بأجمعهم قرروا أولاً أن معرفتهم تقصر عن إبداء الرأي

---

(١) راجع ما كتبه المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «الدين».

الصحيح في تلك العصور ، وأنه ينبغي عدم الأخذ بأي حكم في هذا الصدد ولا التعويل على أي رأي مطلقاً. فكل حكم يصدر عن تلك العصور إنما هو حكم مزيف «يقضي به قاض معزول». فزعمهم بأن الديانة الأولى كانت وثنية زعمٌ باطل من أساسه وحجةٌ واهية ليست مقبولة قط لاتفاق المؤرِّخين على عدم قبول أي شيء بخصوص ذلك المجتمع الأول.

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنَّ البشريَّة لا تسير على خط مستقيم في طريقها إلى الحياة ، إنما هو ترقٍّ وانتكاس. فبينا هي ماضية في رقيها حتى تصل إلى درجات عالية ، إذ تبدأ بالتردي حتى تنحطَّ في مهاوي الجهل. فإذا رأينا مجتمعاً من مجتمعات تلك العصور ليس فيه أثارة من رقي ومعرفة ، فإن ذلك لا يدل على أنَّه وُجِدَ كذلك منذ البداية ، بل لعل الأرجح أنَّ هذا التردي حدث عقب مدنية زاهرة وحضارة وارفة نسبياً. ومن يملك برهاناً على عدم صحة هذا الرأي وهي عصور ما قبل التاريخ التي لا يُقطع فيها بالقولِ الفصل؟ ومَنْ يستطيع أن ينكر هذا وسنن الحياة توحي بأن هذا التعليل قد يكون أصدق من غيره؟ ومن يدري فلعل الذي توصلوا إليه من أمر الجهل والتردي كان قد سبقه من العلم والمعرفة ما سبقه ، وهذا شأن أغلب الحضارات؟!

إنَّ العصور المظلمة في كل زمان ـ تقريباً ـ كانت تَقدَّمتها عهودٌ ضاربة في الرُّقي والتقدم ، هذا وقد دلت الأبحاثُ والتنقيبات الأثريَّة على أنَّ حضارة تلك المجتمعات القديمة لا بأس بها وأن معرفتها عن الحياة غير قليلة ، فكم احتاج هؤلاء حتى بنوا حضاراتهم وشَيَّدوها؟ وكم من الأجيال ذهبت وهي تسهم في بناء تلك الحضارة؟ ومَنْ يدري فلعل هذه الحضارة قامت إثر حضارة أخرى كانت في مجتمع آخر ثم تردّى في متاهات الضلال والجهالة. فهل يزعم أحد أو يدعي بأن هذا المجتمع أو ذاك هو أقدم المجتمعات البشرية على الإطلاق ، والعلم الصحيح

لا يؤيِّده؟ ومَنْ يقضي بأنَّ ديانة هذا المجتمع أو ذاك هي أقدم الديانات على الإطلاق؟

ثم إنْ كان قد ادعى أحدُ الباحثين أو المؤرخين أنه استدل بنتيجة بحوثه وتنقيباته أن ذلك المجتمع الأقدم الذي توصل إليه قد عبد الوثن، فهل يقتضي هذا بأنَّه كان كذلك منذ بدء الخليقة وفي كل المجتمعات على السواء؟!

إن نتيجة التنقيبات أظهرت هذا وأظهرت غيره والمُنقِّبون لم يصلوا إلى نتيجة واحدة، فبينما توصَّلَ جماعةٌ منهم إلى دين لمجتمع ما توصل غيرهم إلى دين آخر لمجتمع يعاصره أو يسبقه.

ثم حجة أخرى قد تبدو قوية: يقولون إن البشرية كانت غارقة في الجهالة لا تعرف عن أمر الحياة شيئاً ثم بدأت بالترقي التدريجي وأخذت نظرتها تتسع شيئاً فشيئاً حتى ارتفعت إلى أفق التوحيد وإلى فكرته السامية.. ونحن بدورنا نعلِّق إزاء هذا الكلام فنقول: متى كان العلم والدين، والحضارة والعبادة، يسيران جنباً إلى جنب في خط واحد وعلى منهج واحد على طول العصور؟ إنَّه من الجائز جداً أن يكون في مجتمع ما تقدمٌ علمي وحضارة رائجة ومع ذلك فهو في دور تدهور ديني وانحطاط في العقيدة والعبادة. وخذوا «يونان» مثلاً ألم تكنْ تعبدُ الوثنَ وتَدينُ بالحجرِ في أوجِ حضارتها وعنفوان قوتها؟

إنَّ هذا القول يقتضي أنَّه كلما كان المجتمع أوفرَ حضارة كان بدوره أقرب إلى التوحيد، فَلِمَ لا ينطبقُ هذا الاقتضاء على المجتمع الغربي الآن؟

إن خط سير الدين غير مرتبط بخط سير العلم[1]، قد يتفقان مرة

---

(١) بمفهومه عند الناس ـ ع.ز.

ويختلفان أخرى. وليس معنى ذلك أنَّ مبادئ الدين تخالف أصول العلم، كلا! فهذا شيء وذلك شيء، ولكن المقطوع بصحته لحد الآن أن أيَّ دينٍ من الأديان يكونُ في أول نشأته أصفى وأخلى من التعقيد من أي وقت آخر يمر عليه، وكلما ابتعد عن مصدرهِ كدر صفوه ودخلَهُ التعقيدُ والتخليط.

فاليهوديّة والمسيحيَّة والإسلام مثلاً وغيرها من الأديان المعروفة كانت أول نشوئها وبادئ عهدها أقرب إلى التوحيد والصفاء منها الآن بغض النظر عن مستوى الحضارة.

إنَّ الحضارة في عهد العباسيين وتشعُّبِ العلوم والمعارف أكثر بكثير منه في عهد الخلفاء الراشدين، ولكن لم يقتضِ التقدم العلمي الكبير أن يكون الدين قد ترقى بدوره نحو التوحيد وصفا من كدرٍ كان عليه مراعياً تقدم المجتمع المدني. إن الدين في عهد الرسول أحسن حالاً بكثير منه في أي عصر من العصور الإسلامية الأخرى على ما فيها من حضارة زاهرة وعلوم زاخرة.

وثمة سؤال آخر: تُرى هل أثَّر التقدمُ العلمي والحضارة الزاهية في المجتمع الغربي الآن على عقيدة التثليث وأرجعها إلى التوحيد كما كانت في عهدها الأول؟

فهل يحق لأحد بعد هذا أن يدعي أنَّ الأديان كانت قد نشأت وثنية ثم ترقَّت بتقدم العلوم؟ وهل يستطيع أن يجزم بأنَّ الدين والحضارة يسيران جنباً إلى جنب؟

أعرفتَ إذن إلى أي مدى تتهافت وتتضاءل حججهم، ويسقط ادعاؤهم بأن دينَ البشريَّة الأقدمَ هو الدينُ الوثني ثم تقدم بتقدم البشر؟ لِمَ لا نقول إنَّ ما توصلوا إليه من وثنيَّة كان أصله توحيداً ثم ابتعد الناسُ عن

روحه ، متمشين ـ في منطقنا ـ مع خط سير الأديان العامة[١]؟

تصحيح نظرة

إنَّك في شؤونك الخاصة وأحوالك العارضة تراجع المختصين تأخذ برأيهم وتنزل على حكمهم ولا تطمئن إلى غيرهم. فعندما تمرضُ أو يمرض أحد أفراد عائلتك تراجع الطبيب الحاذق تطلب منه الدواء وتلتمس عنده البرء والشفاء.

وإن كنتَ صاحب أرض تريد أن تستدر آبارها وتستثمر خيراتها تراجع المهندس الخبير يقضي حاجتك ويُبلِّغكَ إرادتك. إنَّك تراجع المختصين في كل أمر ، ولا ترضى بالمهندس طبيباً لأنَّك تعلم أنه ليس من اختصاصه أن يداوي المرضى.

هذه أمور يفعلها البشر حسب المنطق الصحيح ، وهم منطقيون جداً أن يراجعوا المختصين في كل أمر.

أمَّا الأمورُ غير المنطقية فالتماسُ الناس حقائقَ عقائدهم عند غير المختصين، كان عليهم تمشياً مع منطقهم الصحيح في قضاء حاجاتهم وسائر شؤونهم أن يراجعوا المختصين والعارفين. والمختصون بهذا العلم هم الأنبياء وحدهم ومَنْ مشى على نهجهم. فلا يفزعنَّك أيُّها المؤمنُ أن ترى المهندسَ والطبيب ، والمحامي والأديب منكرين فإنه ليس الأمرُ من اختصاصهم.

---

(١) وهذا ما يؤيده القرآن الكريم إذ يقرر أن الأصل في الناس التوحيد وأن الشرك طارئ عليهم فيقول: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة]. يقول المفسرون: إنهم كانوا أمة واحدة بالحق والتوحيد فاختلفوا وأشركوا ـ ع. ز.

أقر بعجزي

إن الأدلةَ على وجود الخالق سبحانه كثيرة جداً. وآياتُه تملأ الآفاق. وهو لشدَّةِ ظهوره خَفِيَ عن الأبصار، وقديماً قيل: «إنَّ من شدةِ الظهور الخفاء».

قد تُنكر العينُ ضوءَ الشمسِ من رَمَدٍ   وينكرُ الفم طعمَ الماء من سقمِ

وأنا أقول وأصرح بأنني لا أستطيع أن أحصر الأدلة والبراهين لأنها تجمع الكون، ومن يستطيع أن يجمع الكون في قصاصات؟! بل يَجملُ بي أن أصرِّح أكثر من هذا فأقول: إن البراهين التي سأقدمها لا أدّعي أنها تقنع كل أحد. وليس ضعفُ الأدلة معناه ضعفُ الحقيقة ذاتها، كما أنّ عدم الاقتناع لا يعني عدم صحة الدليل. فالإيمانُ كما أسلفت تيسيرٌ من الله تعالى، وأنا مؤمن لا لأنِّي أعرف هذه الأدلة، فَمُوحياتُ الإيمان كثيرة وما لم تَقتنعْ به أنت قد يقتنع به غيرك. وكل ما أريد أن أقرره: أنه لا يكون ضعفٌ في الحقيقة الإلهية إن ضعف الدليل أو لم يقتنع القارئ، وعجزُ المبرهن عن إقامة الدليل لا يعني عدم صحة هذه الحقيقة، إنما يعني عجزه هو فقط.

طائفة من أقوال العلماء والمستدلين

١ ـ الإله هو قدرةٌ عاقلة مُدبِّرة تدبر العالم على خير ما يمكن. وهذه السلطة المدبرة هي التي أدخلت النسب والنظام والانسجام في كل جزئيات الكون.

«أفلاطون»

٢ ـ يوجد في الطبيعة نظام وانسجام لا ينحرفان ولا يتخلَّفان ، وهذا لا يوجد إلا حيث تكونُ غاية محدودة. وكل رَمْي إلى غاية يستلزم بالضرورة عقلاً ، وإذن فللطبيعة علَّة عاقلة.

«أنا كساغورس»

٣ ـ أنا موجود ولدي فكرة واضحة عن الكامل المطلق ، فإمَّا أنْ أكونَ مُنشئَ نفسي أو قد أنشأني غيري ، فلو كنتُ منشئ نفسي لكان أهون عليَّ أن أمنح ذاتي الكمالَ الذي لديَّ فكرته ، لأن إنشاء الجوهر أصعبُ وأعقد من منحه صفات وخصائص أياً كان شأنها. وبما أني ناقص ، بدليل أني أرتابُ وأجهل وأشعر بسيري نحو الكمال شيئاً فشيئاً ، فأنا عاجز عن منح ذاتي الكمال ، وبالأولى أكون عاجزاً عن إيجاد جوهري ، وإذن فلم يبقَ إلا أن أستمدَّ وجودي من غيري ، وهذا الغير إن لم يكن هو الكامل فسيكون موقفه كموقفي إلى أن نصلَ إلى الكامل الأعلى الذي تتمثل فكرته في عقلي.

«ديكارت»

٤ ـ إن الأسبابَ حجاب تصرف القدرة. إذ العزةُ والعظمة تقتضيان الحجاب. . . ولئلا يرى العقل الظاهر مباشرة يد القدرة بالأمور الخسيسة الجزئية[١].

٥ ـ كيف تكونُ الثمرةُ الموضوعة على رأس الشجرة خالقةً وصانعة لشجرتها؟

٦ ـ مَنْ لا يقتدر على خلقِ كلِّ شيء لا يقتدر على خلق شيء من الأشياء.

---

(١) هذا وما بعده حتى الحادي عشر للسيد النورسي رئيس الجماعة النورية في تركيا.

٧ ـ إن الشيء الموهوم الذي سماه الطبيعيون بالطبيعة لو سُلِّمَ بوجوده الخارجي فإنما هو صنعةٌ لا صانع ، أحكام لا حاكم ، شريعة لا شارع ، مخلوق لا خالق ، مفعول لا فاعل ، قانون لا قدرة ولا قادر ، مُسَطَّر لا مُصَدِّر.

٨ ـ الحيُّ قطرةٌ محلوبة من مجموع الكون بنظامات حكيمة معينة وكأنَّه نقطة جامعة مأخوذة من المجموع بموازين حساسة علمية، فلا يمكن أن يخلق أدنى ذي حياة إلاّ مَنْ يأخذ في قبضةِ تصرفهِ مجموعَ الكائنات.

٩ ـ كما أن (دار الأدوية) المملوءة بأنواع الأدوية والمعاجين المنتظمة الموزونة بموازين حسّاسة المُقَدَّرة بمقاييس خاصة ، كما أن هذه تَصيحُ بلسان حالها: إن لي صاحباً عالماً جامعاً لهذه الأدوية من أماكن متنائية للمحتاجين إليها ، كذلك كرة الأرض تدل بأتم دلالة وأظهرها على أن لها صاحباً حكيماً قديراً قد خلق وأبدع فيها أكثر من ثلثمائة ألف من أنواع النباتات ، كل منها دواءٌ لداء.

١٠ ـ من نظر المصنع الكبير والمعمل الذي ينسجُ ويُسَدِّي أنواع الثياب واللباس المزيَّنة يستدل على مهندسه وصاحبه ، وكذلك من نظر إلى كرة الأرض يراها ماكنة ربانية ومصنعاً إلهياً يسدي وينسج أنواع المطعومات والمشروبات والملابس ويستدل كذلك أن لها صاحباً حكيماً قديراً.

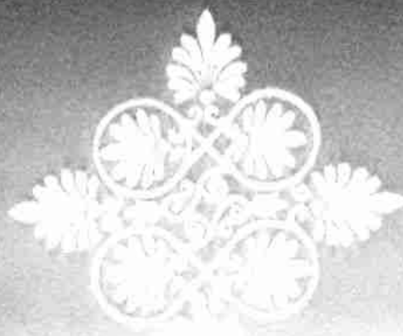
١١ ـ لو تكوَّنت فرقة من (٢٤) ألف فصيل ، وكانت أرزاقُ وأسلحة وألبسة وتعليمات وترخيصات كل فصيل منها مخالفة للآخر ، ويوزعُ في كل سنة أو أقل من سنة على تلك الفصائل ما يحتاجون إليه من تلك الأرزاق والأسلحة والألبسة التي لا يشبهُ بعضها بعضاً. فكما أن مَنْ ينظر إلى تلك الفرقة المنتظمة لا يشك في وجود مُدَبِّرها وفي علمهِ ومهارته ، كذلك مَنْ نظر هذه النظرة إلى الأرض التي تحتوي على أكثر من أربعمئة

وعشرين ألفاً من أنواع عساكر الحيوان والنبات المخالف كل منها للآخر في غذائه وشكله وحياته ونموه أيقن ولا شك بوجودِ خالقٍ يدبر أمرَ تلك الفرقة المركبة من الآلاف من عساكر النبات والحيوان بكمال وانتظام.

١٢ ـ أظن أنه لا يغيبُ عن فطنة أي لبيب أن الاعتقاد في وجود الله هو في حدّ ذاته اعتقاد مقبول بل أقرب إلى التصديق من تلك الاعتقادات المضحكة التي يَدينُ بها الناسُ الآن ـ إن كان العالم يتطلع إلى كل ما هو معقول مقبول ـ ولعل الإيمان بالله وبرسله وكتبه أقل عرضة للمهاترات الجدلية من معظم تلك العقائد شبه العلمية التي يقع الإنسان تحت سلطان تأثيرها المخدر ، فإن إيمان المرء بشيء ما ليس أمراً طبيعياً فحسب ، بل هو جِدُّ ضروري له. ففي حالة عدم توافر الإيمان الصادر عن القلب يصبح المرء عبداً ذليلاً لكل عقيدة مُحَمَّلة بوعودِ الحياة الغنية التي يشتهيها ويرتقبها.

«هنري لنك»





طائفة من الأدلة العقلية

- ١ -

نـظــرة عـامــة

نظرة واحدة إلى مظاهر خَلْقِ الله نجدها أنها ليست خُلقت عبثاً ولا على غير نظام معين، فهي موزَّعة حسب الحاجة إليها. فقد جعل الله الهواء لشدة الحاجة إليه موجوداً في كل مكان منتشراً في كل بقعة لا يعسرُ على أحد الحصول عليه نباتاً كان أو حيواناً أو إنساناً. فهو موزع في جميع الأماكن لا يدفعُ طالبه أيَّ ثمن، ويستعمله في جميع حالاته، يقظاً ونائماً، متمكناً من نفسه وغافلاً، وذلك لأنه يتعذرُ العيشُ بدونه ولو لوقتٍ قليل. ولذلك جَهَّزَ اللهُ مخلوقاته الحية بأجهزة تستقبلُ الهواء دوماً وفي كل حالة وبلا سعيٍ إليه ومن دون إعمالِ فكرٍ وبطريقةٍ غير شعورية.

ويأتي الماء في الدرجة الثانية بعد الهواء من حيث الحاجة إليه، لذلك تراه أقلّ من الهواء وجوداً. فهو ليس موجوداً في كل مكان، على أنه أكثر شيء في الأرض بعد الهواء وهو يعادل ثلاثة أرباع اليابسة. ويحصل النبات والحيوان والإنسان عليه بعد سعيٍ إليه قليل، وقد ينفد الماءُ لدى شخصٍ ما في مكان ما ويبقى الساعات بدونه، وقد يضطر

لدفع الثمن به لشرائه ولكن ثمنه على كل حال زهيد بحيث لا يعدمُ أحدٌ من الكائنات الحية أن يحصل عليه.

ويأتي الغذاء في الدرجة الثالثة بعد الهواء والماء، لذلك ترى الإنسان بل وحتى الحيوان يسعى إليه سعياً، ويعمل له فكره وسائر قواه ويقضي الطويل من عمره في الحصول عليه. وقد لا يجد إنسان منه ما يَسدّ خلّته ويقيمُ أَوَدَهُ، ويَباتُ على الطوى لياليَ وأياماً ليس شأنه مع الهواء والماء... كما أن الأغذية موزعة في الأرض حسب الحاجة إليها، فأكثر الأغذية احتياجاً إليها أكثرها انتشاراً، وتقلّ تبعاً للحاجة، حتى أن أقل ما يحتاج إليه هو أقلها انتشاراً... إضافة إلى أن الغذاء مُذلّلٌ حسب قدرة الكائن الحي، فكلما كان الكائنُ الحي قليلَ الحيلة ضعيف التدبير كان غذاؤه ميسراً له مذللاً، وكلما كان أمعنَ في التفكير وأطول باعاً في المقدرة كان غذاؤه والحصول عليه أعسرَ وأعقد، ولما كان النبات هو أقل الكائنات الحية حيلة وأضعفها تدبيراً وأقصرها باعاً في المقدرة وأعجزها عن الحركة كان غذاؤه حيث هو.

فحيث كان النبات كان غذاؤه معه يمتص مواده الأولية من مغرسه لا ينأى بعيداً ولا يفكّر سديداً، أمّا الحيوان والإنسان فهو جاهد ما استطاع وبخاصة الإنسان يَجوبُ الفيافي والقفار ويضربُ في مناكب الأرض طولاً واتساعاً للحصول عليه وذلك لتحرره مما عليه النبات من قيود، ولتملكه وسائلَ الحيلة والقدرة، أهذا التدبيرُ والترتيب نشأ عفواً ومن دون مُقَدّرٍ له عاقل يدرك حاجات الكائنات فيزودها بما تحتاج إليه، أم أن هناك قادراً عالماً بحاجات الأحياء فأعطاهم بِقَدَر وأَمدّهم بمقياس؟

مَنْ أدرك بأنّ الأحياء تحتاج إلى الهواء احتياجاً دائماً لا ينقطع فكوّنَ منه فيضاً لا ينفد في كل بقعة وزمن، ومَنْ زَوّدَ الأحياء ـ تبعاً لذلك ـ

بأجهزة تستقبله في كل وقت وأعدّها لهذا العمل إعداداً، ومن أدرك بأن حاجة الأحياء إلى الماء والغذاء أقل مما هي إلى الهواء فكان كما أدرك. ومَنْ ذلل الغذاء حسب الكائنات ويسرها على قدرة المخلوقات. مَنْ هو ذاك؟ أليس ذلك هو الذي قال عن نفسه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر]؟!

ـ ٢ ـ
الـهــواء

ثم لو نظرنا نظرة أخرى لوجدنا طريقة «خلط الهواء» أمراً عجيباً ، إن كل مادة فيه على انفرادها سم قاتل أو محرق مهلك أو غاز خانق ، فمن دبّر الأمرَ وخلط هذه المواد بنسب جعلتها (حاجة الوجود) ولو اختلت النسب لهلك كل كائن حي؟ وإضافةً إلى هذا فإنّ الخالق لم يُخْلِ الهواء من غازات أخرى في أعالي الفضاء تسمى «الغازات النادرة» ووجودها أمر ضروري ، إذ لو عدمت لعمّ العالمَ الهلاك. فهي تمتص طرفاً من بعض الأمواج الضوئية كالأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية ، إذ لو وصلت هاتان الأشعتان كما تصل إلينا باقي الأمواج الضوئية لأبادت العالم وأهلكت الكائنات حرقاً. كما أن الخالق لو جعل نسبة هذه الغازات عالية بحيث تمتصّ الأشعة كلها لهلكَ النباتُ خاصة والأحياء عامة وذلك لعدم إمكان صنع غذائه إلا بها ، ولتأثيرها الكبير في بناء الأجسام.

وما ألطف ما يقوله أ. كريسي موريسون[١] في «الهواء» في كتابه «العلم يدعو للإيمان»:

---

(١) هو الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك ، ورئيس المعهد الأمريكي لمدينة نيويورك ، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة ، وزميل في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي ، وعضو مدى الحياة للمعهد الملكي=

«. . . وفي هذا الاضطراب الذي لا يمكن إدراكه ، كان الأوكسجين يتحد مع جميع مواد قشرة الأرض تقريباً. وقد اتحد أيضاً مع كل الهيدروجين الذي اتصل به ، وبذا تكوّنَ المحيط. ولا بد أن مقادير هائلة من الهيدروجين قد فرت من جاذبية الأرض قبل أن تبرد هذه ، ولولا ذلك لكانت كتلة الماء قد بلغت الآن من الضخامة بحيث كانت تغرق الأرض إلى عمق أميال. . . ».

«وكان اتحاد العناصر كاملاً لدرجة أن ما تُرِكَ ، وهو الهواء المكون من الأوكسجين والنتروجين على الأخص ، لا يزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضية. . . فلماذا لم يمتص كله ، أو لماذا لم يكن بنسبة أكبر كثيراً من تلك النسبة؟ وفي كلتا الحالتين كان الإنسان لا يمكن أن يوجد على ظهر الأرض. . . ».

«ودون تأكيد لهذه المسائل بعد ذلك ، نرى أن مما يدعو إلى الدهشة على الأقل أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل بالغاً هذه الدقة الفائقة. لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضع أقدام ، لامتُصّ ثاني أوكسيد الكربون والأوكسجين ، ولما أمكنَ وجودُ حياة النبات. . . ».

«ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو، فإن بعض الشهب التي تحترق الآن كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي، كانت تضرب في جميع الكرة أجزاء الكرة الأرضية. وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية، وكان في إمكانها أن تُشعلَ كل شيء قابل للاحتراق. . . ».

= لبريطانيا. ألف هذا الكتاب باسم «الإنسان لا يقوم وحده» وسماه المترجم «العلم يدعو للإيمان».

«إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيموي التي يحتاج إليها الزرع والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان ، إلا إذا عَرّضَ نفسه لها مدة أطول من اللازم. وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر ، ومعظمها سام ، فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع ، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.

وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء ، أي المحيط الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنبات ، وأخيراً الإنسان نفسه. فَدَعْ الذي يدرك ذلك يقف في روعة أمام عظمته ، ويقوم بواجباته شاكراً!».

فَمَنْ أحكمَ هذا الأمر ودبره لولا أن هناك قوة عاقلة مدبرة حكيمة تُحسنُ التصرفَ في الأمور وتجيد الحكمة والتدبير؟

ـ ٣ ـ

الـمـاء

وطريقة تركيب الماء لا تقل عجباً عن خلط الهواء ، فهو مركب من مادتين إحداهما تحترق والأخرى تساعد على الاحتراق ومع ذلك فحاجة الأحياء إليه مما لا يخفى على أحد. وقد دبّر الله إمداد الماء للكائنات الحية على طول العام تدبيراً محكماً والناس عنه غافلون. فقد جعل من الرياح والسحب والثلوج والجبال وباطن الأرض والينابيع عوامل متعاونة في سبيل إمداد الكائنات الحية بالماء دائماً.

وثَمّ نظرةٌ ثانية ، هي أنّ الماء يخالف قانون السوائل جميعها في

طريقة الانجماد ، فالسوائل كلها عندما تتجمد تزدادُ كثافتها ويقلّ حجمها ويثقلُ وزنها إلاّ الماء وحده فهو يكبر حجمه وتقل كثافته ويخف وزنه عكس بقية إخوانه من السوائل ، فَلِمَ كان ذاك؟ وعلام هذا الاختلاف؟ وما سبب هذا الانفراد؟

أليس من أهداف هذا الانفراد حفظ الحيوانات البحرية؟ ألا يدلّ ذلك على عينٍ ترعى هذه الأحياء وهي سابحةٌ في خضم المحيطات وفي ظلمات البحار ومتاهاتها؟ ألا ترى أنّه لو أتيح للماء أن يتبع في طريقة انجماده قانون السوائل لهبط الثلج نازلاً وكَوّن طبقة تمنع الأسماك من العيش؟

إنّ الجليدَ يطفو ويكون طبقة علوية تحمي الماء السفلي من الانجماد وتحفظُ عليه دِفأه ، ولو انعكس الأمر لتكونت طبقة عظيمة من الثلج داخل الماء قد لا تذيبها حرارة الصيف وفي ذلك مشكلة كبيرة للعالم كله. فمن دَبّر ذلك كله؟ ومَنْ تَصرّفَ في الماء هذا التصرف العجيب حفظاً للأحياء؟ ومن لاحظ حاجة الأحياء البحرية ولم يَدَعْها تحت رحمةِ قانون السوائل؟ إنّ هذه الأحياء مسلمة أمرها لوسطها ولا تستطيع منه فكاكاً ، فمن جعل لها البحار مهداً تحنو عليها في الشتاء وتصد عنها جيوش الاعتداء ، جيوش الطبيعة الغضبى ، جيوش البرد؟ مَنْ رَكّبَ جسمها تركيباً يستطيع أن يواجه الضغوط الهائلة ، ومن أصلح الماء لها وأصلحها للماء؟!

ذلكم هو الله سبحانه.

ـ ٤ ـ

برهان الكائنات الحية

إن الكائنات الحية من نبات وحيوان ـ وحتى إنسان ـ تختلف في

أساليب معيشتها تبعاً للوسط الذي تعيش فيه. فالحيوانات التي تعيش في الصحراء تختلف تركيباً وسمتاً ونوعاً عن الحيوانات التي تعيش قرب المياه، وكذلك النباتات، فالتي تعيش في الصحراء تختلف عن أختها التي تعيش في المياه أو قرب المياه، والتي تعيش في المياه الملحة تختلف عن أختها التي تعيش في المياه العذبة. والكائنات الحية التي تعيش في المنطقة الباردة تختلف عن التي تعيش في المناطق الحارة. فبينا ترى الجملَ وهو مَثَلٌ للحيوانات التي تعيش في الصحراء مُزَوّداً بما يُؤهّله لأن يعيش على النباتات الشائكة وأن يُخزّنَ الماء لأيام، ترى الحيوانات التي تعيش في المناطق الباردة صغيرة الجسم سمينته يغطي جسمها أصواف طويلة، أو فراء ثخينة، أو جلود سميكة حافظة للحرارة، حتى إن الكلب الذي يعيش في القطب لا يشبه أخاه الذي يعيش في الصحراء، والدب والغزال الذي يعيش في تلك المناطق يختلف عن أخيه في غيرها وقد يختلف عنها حتى في السحنة... وما يَصدقُ على الحيوانات يصدق على النباتات. فمن الذي زَوّد حيوانات كل منطقة بما يلائمها ويصلحها؟

مَن الذي زود حيوانات القطب بفرو ثخين وصوف طويل وجلد سميك؟ ومن نزع هذه عن مثيلاتها في الصحراء؟

مَن الذي جعل لكل كائن حي ما يحفظه لوسطه الذي يعيش فيه حتى لا تعمى عليه وجوه الطبيعة فيهلك؟

من الذي خلّص هذه الحيوانات من الحروب التي تشنها عليها الطبيعة من حر شديد وقَرّ قارص وقلة ماء وجدب، من هو ذاك؟

يقولون: إن الحيوانات تكيّفتْ أو كَيّفت نفسها للمعيشة في هذه الأوساط. كيف يستطيع الحيوان والنبات أن يكيف نفسه وأن يتصرف في خِلقته وطبيعته وهو يولد على هذه الشاكلة؟ كيف يستطيع ذلك وهو لا يدَ له في ذلك كله، لا يدَ له في صوفِه وفروهِ ولا يدَ له في قِصَرِ قامته

وطولها. . . إنّه إنْ صح ذاك يقتضي وجودَ الحيوان قبل أن يوجد ليزود خِلْقته بما يحتاجُ إليه ، ومَنْ يقول بهذا إلا مُخرّف؟

ويقولون: إن الطبيعة كَيّفتهُ وزوّدته بما يحفظه، فليت شعري هل تعقل الطبيعة وتفكر فتزود الحيوانات والنباتات بما تحتاج إليه؟ هل تُحِسّ الطبيعةُ بحاجة الكائنات الحية فتهبها خلقتها؟ أهكذا تنبع الرحمة من قلب الطبيعة الصمّاء ، أم أنّ هذا هو الاعتراف الصريح والإقرار السافر بأنّ هناك قوةً عاقلة مدبرة رحيمة تنظرُ حاجاتِ الكائنات وتُزودها بما تحتاجه وينسبونه خطأ أو مكابرة إلى الطبيعة؟ أم أن الطبيعة تعني عندهم قوةً حية عاقلة ، عارفة مدبرة؟!

ـ ٥ ـ(١)

إن كل مخلوق بين أمواج متلاطمة من التحولات والانقلابات وهو يسعى لإيفاء وظيفته وإبقاء حياته مع أن قوته الجزئية قاصرة عن ذلك جداً. فبالتعاون الحقيقي من قوة كلية فوق قوته الجزئية يُتِمّ وظيفتَهُ ويحافظ على حياته. فمثلاً نرى أن العناصر تمد ذوي الحياة ، والسحاب يمد النباتات ، والنباتات تُعاونُ الحيوانات ، والحيوانات وباقي الكائنات تعاون الإنسان ، واللبن من الثدي يُعينُ الطفل ، حتى إن كثيراً من حاجات ذوي الحياة الخارجة عن قدرتهم ينالونها من حيث لا يحتسبون كتعميرِ ذراتِ الطعام لِحُجيراتِ البدن. إنها حركاتُ تعاونٍ واسعة تشمل جميع ما في الكون.

إن معاونة هذه الأشياء بعضها بعضاً مع أنه لا شفقةَ فيها ولا شعور يدل على أن هذا يتم بأمر ربّ ذي جلال وقوة ورحمة.

---

(١) إن هذا الدليل والذي بعده والسابع والتاسع لبديع الزمان النورسي مع تغيير يسير في بعض الكلمات.

- ٦ -

إنّ لجسمك مع باقي الكائنات ولا سيما من جهة الرزق وبقاء النوع علاقة ومناسبة وبيعاً وشراء ، وإن الذرّات العاملة في جسمك تحتاط أن تنقطع تلك العلاقةُ والمناسبة التي بين جسدك وباقي الكائنات احتياطاً ، كأنها تنظر إلى جميع الكائنات بتروّ وترى مناسبتك وعلاقتك بين الكائنات فتسير حَسبهما خوفاً من أن تتزلزل تلك المناسبةُ والعلاقة معها. فإن لم تكن تلك الذرات الساعية في جسدك مأمورة تتحركُ بقانون القدير الأزلي لزم أن يكون لكل ذرة عاملة في عينك عينٌ ترى جميع جسدك وجميع الكائنات التي بينك وبينها مناسبة ، وأن يكون لها عقلٌ يدرك منابع عناصرك ومعادن رزقك.

ويقول أيضاً: إنك لو لم تسند كل حي وحياة وأحياء بواسطة تَجَلّي الأَحَدية الجامعة ، لزمَ عليك أن تقبل في كل ذي حياة ولو ذبابة أو زهرة قدرة فاطرة بلا نهاية وعلماً محيطاً وإرادة مطلقة. . . إذ إن كل ذرة لا سيما إذا كانت من البذرة والنواة لها وضعية منتظمة عجيبة ، ولها مناسبة مع أجزاء الحي الذي هو جزء منه، بل لها مناسبات مع نوعه بل مع الموجودات، ولها وظائف في نسبها. . . فلو قطعت نسبة الذرة عن القدير المطلق لزمك أن تقبل في الذرة عيناً ترى كل شيء ، وشعوراً يُحيطُ بكل شيء.

- ٧ -

برهان الوحدة

إن في هذا الوجود وحدة شاملة بين موجوداته وأسبابه ، وإنه إن كان لموجود وحدة فصدورهُ لا يكون إلا من واحد (الواحد لا يصدر إلا عن

الواحد). فالبداهة حاكمة بأن ذا الحياةِ الموزون بميزانٍ حساس وانتظام كامل لا يصدر إلا عن يد واحدة، يَدِ حكيمٍ قدير لا من أيادٍ عمياء متعددة متضادة مختلفة؛ لأن إسناد ذلك الوجود إلى الأسباب الجامدة الجاهلة المتجاوزة المختلطة التي لا شعور لها ولا سمع ولا بصر لا يقبله إلاّ مَنْ فقد عقله.

ويقول أيضاً في هذا المعنى: إنّ نهاية الاختلاط والاشتباك في أفراد الأنواع المختلفة مع غاية الامتياز والتشخيص بلا مرج ومزج وبلا خلط وغلط تختص بمن هو بصيرٌ بكل شيء، وشهيد على كل شيء.

ـ ٨ ـ

يقول أحد العلماء في المعنى السابق: إنّ أول سؤال يرد: ما هو العامل المُوفّق بين فاعلياتِ هذه القوى المتضادة العمياء هذا التوفيقَ الدائم المطرد البديع لو أن الأمر ـ كما يزعمون ـ من تسلط تلك القوى العمياء على الكون؟!

وما أبدع ما يقوله عالم آخر في هذا الخصوص:

... يا سبحان الله! أليست وحدة النظام بين هذه الكتائبِ المختلفةِ الطبيعة، المتنوعةِ العمل، من الكائنات السماوية والأرضية آيةً على وحدة القيادة العامة التي تشرف عليها، وعلى وحدة الخطة المرسومة التي يسير على هُداها كل جهاز من أجهزة هذه الآلة الكبرى؟

ـ ٩ ـ

وقع الاحتياج للتداوي مرة إلى معجون فراجعنا (دار الأدوية) وكان فيها مئات من القوارير المملوءة من الأدوية المختلفة، فأخذنا واحداً من

المعاجين الموجودة هناك وحلّلناه فتبين لنا أنه اتّخِذَ من تلك الأدوية التي في القوارير بأن أُخرج من قارورةٍ درهمان ومن أخرى ثلاثة ومن غيرها خمسة وهكذا أُخرج منها المقدار الذي عرفه الطبيب بميزان حساس وموازنة تامة ، بحيث لو كان نقصٌ أو زاد ذرةً على المقدارِ الذي قدّره الطبيبُ لأدّى إلى عكس النتيجة وخلاف المطلوب، فأخذنا ذلك المعجون وقد أمّن حاجتنا . . . فلو وقع بين تلك القوارير تَصادمٌ صدفةً بزلزلةٍ تحت تلك الدار وأدى ذلك التصادم إلى انكسار القوارير وخروج الأدوية منها ، فهل يمكن أن يكون المقدار الخارج من كل قارورة هو المقدار الذي أخرجه الطبيب بميزانه الحساس بلا زيادة ولا نقصان ويجتمع كل ما خرج بنفسه ويتشكل المعجون المطلوب؟ وهل يمكن أن يكون ذلك دائماً وعلى وجه الشمول وفي كل دواء وكل محل؟ كلا ، وألف كلا .

كذلك إن كلّ ذي حياةٍ (معجون حي) رُكّب من أجزاء كثيرة وعناصر مختلفة مأخوذة من مواد متباينة موزونة بكمال ميزان ، فلو أُسندَ هذا (المعجون الحي) إلى الأسباب الجامدة والعناصر الصامتة وقيل إن الموجِدَ هي الأسباب ليس غير لكان هذا الإسنادُ أقبحَ وأضل من إسناد (المعجون الطبي) إلى المصادمة وخروج الأدوية بكمال النسب والميزان .

نستنتج من هذا أن مواد الحياة في هذا العالم يأخذها الحكيم الأزلي بميزان حسّاس بعلمٍ مُحيط وإرادةٍ شاملة فيخلقُ منها ذلك المعجون الحيواني ، وليس ذلك من العناصر والطبائع والأسباب العُمْي الصّم .

- ١٠ -

قرأنا مرة: أن عالماً نباتياً صاح يوماً وهو في معمله «لقد رأيتُ الله!» فدهش تلاميذ له كانوا على مقربة منه وسألوه عما أصابه فقال لهم:

لا تُراعوا ، فقد أَراني المجهرُ من دقة الصنع وبراعة الوضع في هذه الزهرة ما حيّر عقلي وأخذ بلبّي وأثبت لي أن هذا الإبداع كله لا يمكن أن يحدث بفواعل طبيعية لا تدرك ما تصنع .

ـ ١١ ـ

قال أحد العلماء: «إنّ حجم الكرة الأرضية ، وبُعدها عن الشمس ودرجةَ حرارة الشمس وأشعتها الباعثة للحياة ، وسمك قشرة الأرض وكمية الماء ، ومقدار ثاني أوكسيد الكربون وحجم النيتروجين ، وظهور الإنسان وبقاءه على قيد الحياة ، كلّ أولاء تدل على خروج النظام من الفوضى ، وعلى التصميم والقصد ، كما تدل على أنّه طبقاً للقوانين الحسابية الصارمة ما كان يمكنُ حدوثُ كلّ ذلك مصادفةً في وقت واحد على كوكب واحد ، مرة في بليون مرة» .

ـ ١٢ ـ

برهان التدبير

يقول الأستاذ محمد فريد وجدي: نعم إن للوجود روحاً كما له مادة ، ألا ترى فيه تحليلاً وتركيباً ، وإيجاداً وإعداماً ، وتصويراً وإبداعاً ، وتوفيقاً ونظاماً ، وتدريجاً وإحكاماً؟ وفوق هذه المظاهر كلها ألا ترى فيه ترقياً مطرداً وتكملاً متواصلاً؟

أرأيت زهرة شذية فسألتَ نفسك كيف تكوّنتْ من هذه الأرض الميتة، وكيف تألّفت ألوانها المعجبة، وَتركّب عَرْفُها الفياح ولطفت حتى لا يحس بها؟ أرأيت الماء الذي تشرب منه شَبماً زُلالاً مِمّ نشأ وكيف لا ينضب؟ . . .

وهل حانت منك لفتةٌ للطيور في أوكارها فرأيت كيف يتعاون الذكر والأنثى على بنائها ، وإيتائها بكل ما يجعلها صالحة لإيواء بيضهما وكيف يتبادلان احتضانها ويعملان على فقسها ، ثم كيف يترافدان على تربية صغارهما وتهيئتها للحياة على مثالهما؟

وهل راقبت الحشرات في ضعفها وسذاجة تركيبها ، ورأيت كيف تهتدي إلى ما يصلحها ويحفظ أنواعها ، وكيف تقوم على ذلك من أساليب ووسائل تعجز أقوى العقول عن تدبيرها؟

وهل شاهدت أنواعاً أخرى من الحيوانات ، فرأيت كيف تقوم على أصول وقوانين ومحاولات تصون بها ذواتها وتحفظ أنواعها؟ . . .

هل هذا الترتيب المُحْكم ، والتكوين المنظم ، والأسباب الموجدة للكائنات ، والعلل الحافظة لها ، والعوامل الدافعة لترقيتها ، والنواميس العاملة لتكوينها ، هل كل هذه المجموعة الضخمة من الأسباب والعلل والنواميس والعوامل، في كون يغلي بالأحياء، ويفيض بالكائنات ، قائمةٌ على مجرد الخبطِ والاتفاق ومحرومة من روح يُدبّرها ويُهيمنُ على أطوارها؟

تَستنيمُ بعض العقول إلى كلمة (الطبيعة) فيجدون فيها سكناً لأرواحهم بل خدراً لعقولهم ، ولو تأملوا لَعلموا أن الطبيعة كلمة تطلق على المجموعة التي نعنيها من الأسباب والعوامل، فإنْ راق لبعضهم أن يحتفظ بهذا اللفظ قلنا: هل الطبيعة تستطيع أن تعمل بغير روح وأن تفعل مجردة عن الحياة؟ . .

-١٣-

ثم يقول الأستاذ في بحث الوحي بحجج دامغة :

. . . خذ في يدك بزرة تفاح وتأمّلها ، تجدها تكاد لا تفترق عن

الحصاة الميتة؟ فإنْ قيل لك ولم تكن رأيتَ ذلك من قبل: إن هذه البزرة توضع في الأرض فتنبت، ويأخذ هذا النبات في النمو حتى يصير شجرة ثم تزهر فتنفرج زهورها عن ثمر التفاح اليانع في مذاقه الشهي، وأريجه الشذي، ولونه الوردي، وملمسه الحريري، لكذبتَ محدّثكَ واتهمته بالإزراء بك والسخرية من عقلك ذلك؛ لأنك لا تعقل أن هذه البزرة الغافلة عن وجودها تنفرج متى غُرست في الأرض وسقيت بالماء عن جذير وسويق، الأول يغوص في الطين يتطلب مواده الذائبة وأملاحه المقومة، ولا يرتفع إلى سطحه. والثاني يرتفع إلى سطحه متطلباً الهواءَ والنور، ومهما حاولت أن تغير وضع هذين العضوين فلا تستطيع ذلك مهما جهدت فيه. أليس هذا الأمر وحده الذي ليس له علة معقولة يدلك على فعلِ الروحِ الإلهي فيه، وإلى دفعهِ لكلّ من هذين العضوين الغافلين عن وجودهما إلى موضعيهما اللذين لا بد من وجودهما فيهما لأداء وظيفتهما في الإنبات؟ أليس هذا الأمر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف، وعلى دفعها لكل عضو فيه إلى موضعه؟

ثم إذا تأملت كيف يهتدي ذلك الجذير وهو مغروس في عيلم[1] من المواد المختلفة التي لا تُحصى كثرةً لانتخاب العناصر التي تتألف منها شجرة التفاح، وتنتج زهرتها وتثمر ثمرتها، وتؤاتيها بِعَرْفها المعروف ومَذاقها المعهود، لو تأمّلت في هذا وفي جميع شؤون المملكة النباتية فاجأت الروح المدبر وهو يهدي هذه الكائنات الضعيفة إلى ما يُصلحها، ويفعل في تكوينها فعلاً مباشراً لا يَغْبى عنه إلا مَنْ ليس له بصر.

ثم دع المملكة النباتية وارتقِ إلى المملكة الحيوانية. وانظر إلى تلك الكائنات الساذجة المكونة من خلية واحدة وهي أبسطُ ما يمكن تصوره

---

(١) العيلم: البئر الغزيرة، جمع عيالم. المعجم الوسيط.

منها، تجدها ممتعة بالعلم الذي يحفظ وجودها ويصون نوعها. وبالمحاولات التي لا غنى لها في الدفاع عن نفسها، وفي الاحتيال للخلاص من ورطاتها.

فمن أين أتى هذه الكائنات هذا العلم وهي محرومة من الأعصاب ومن المخ معاً؟ أليس هذا العلم لديها إلهاماً من خالق الوجود نفسه؟

مَنْ الذي أدرى البعوضة أنها يجب أن تبيض على سطح الماء الراكد وأنها مضطرة لوضع بويضاتها في قوارب صغيرة تعوم على سطحه؟ ومن الذي وضع في جثمانها أجربَة تجف بمجرد ملامسة الهواء تصلح لعمل تلك القوارب؟ ومَنْ أشعرها بأنّ تلك المادة تنغرز بالضغط عليها، ومن لقّنها صناعةَ تلك القوارب واضطرها لوضع بويضاتها فيها، وهي لا تعيش حتى ترى ذريتها خارجة منها، ولم ترَ هي أمهاتها تفعل ذلك قبلها؟ وقِسْ على البعوض جميع أنواع الحشرات والهوام مما لا تُحصى أنواعها كثرة، وكلها تُلْهَمُ إلهاماً، وتعيش على أعجب ما يتخيله المتخيلون من التصرفات المدهشة.

هذه أمور ليست غريبة فحسب، ولكنها محيرة للعقل أيضاً، ومُجْبِرةٌ له على الاعتقاد بأن عالم الحيوانات على اختلاف أنواعه، وتباين وسائل حياته، وتعدد محاولاته، يحيا تحت عناية الروح الإلهية تمدهُ بالإلهامات الضرورية لحفظ ذاته ونوعه، بحيث لو تركته طرفةَ عينٍ لهلك.

أترى أنّ هذه الحيوانات كانت تستطيع أن تبقى في معمعان هذه الهيجاء الحامية، التي تشنها الطبيعة عليها بعوالمها المختلفة لولا هداية الرحمة الإلهية لها وعملها المباشر على صيانتها من معاطبها وإرشادها إلى وجوه نجاتها؟

لقد وصلنا إلى الإنسان، فهل يتلقى مدداً من الإلهام الإلهي على نحو

ما يتلقاه النبات والحيوان؟ أما المدد الجثماني فلا يمكن التشكّك فيه. فإنك تُبصِرُ ولا تدري ما يحدث في بلوريّة عينيك من التحدّبِ والانبساط على حسب أبعاد المرئيات، ولا بحدقتيهما من الضيق والاتساع على قدر كثرة النور وقِلّتِهِ، وتأكلُ وتهضم وأنت غافلٌ عما يحدث في أحشائك من التحليل والتركيب، والتصفية والتصعيد، حتى ليخرج من الخبز والخضر والفاكهة التي نتعاطاها عَضلٌ ودمٌ وعظم وشعر وأوتار وغضاريف وأعصاب. فمن الذي يدبر كل هذه الأجهزة الدقيقة وأكثر أهل الأرض لا يعلمون من أمرها شيئاً؟ ومن الذي يهديها إلى وظائفها ويقودها إلى ما يُقَوّمها ويُصلحها؟

ـ ١٤ ـ

العين والرؤية

وانظر بَعدُ في الإنسان نفسه فإن أعضاءه وتركيبها ما يعجزُ عنه أعظم العقول. وخذ العين مثلاً فإن طريقة تركيبها تدل على أن هناك عارفاً بنواميس النور عالماً بقوانين الضوء رَكّبَ عدساتها وحَدّبها وقَعّرها، وصنع طبقاتها، ووضع عضلاتها، ولوّن حدقها وقرنيتها بموجب تلك النواميس، ولو اختلّت أقلّ اختلال لبطلت الرؤية. فالضوء يمر فيها من وسط إلى وسطٍ آخر يُغايره في الكثافة ومن عدسة إلى عدسة لتجمعه وتفرّقه حسب قانون انكسار الضوء في العدسات حتى تجتمع الصورة على الشبكية مُصَغّرة مقلوبة. وتطرأ عليها بعد عمليات خفية حتى تتضح الصورة في صورة صحيحة وبحجمها الاعتيادي. «وقد كانت العدسات في التلسكوبات الصغيرة والكبيرة مصنوعة من كتل زجاجية كل منها محدبة السطحين، فلمّا رأى العلماء أنها لا تَفي بالغرض لأن مناطق من

النور الملون تتكون حول الشبح الذي ترسمه بسبب انحلال النور إلى ألوانه حين مروره في المنشورات الزجاجية التي تتكون منها العدسة اتجهوا إلى محاكاة تركيب العين البشرية ؛ لأنّ لها أكثر من وسط واحد لكسر الأشعة وجمعها. ففيها العدسة والرطوبتان الزجاجية والمائية ، فصنع العلماء للتلسكوب عدستين ، الأولى كثيفة محدبة السطحين والثانية أقل من الأولى كثافة وتحدباً ، ولصقوا الأولى والثانية بمادة تسمى (بلسم كندا) ينكسر النورُ فيها مثل انكسارهِ في الزجاج».

ألا يصدق بعد هذا قول ديكارت: إن الذي خلق العين يعلم نواميس الضوء فخلقها بموجبها؟

يقول أ. كريسي موريسون في كتابه (العلم يدعو للإيمان) ص ١١٣ : «إن عدسات عينك تلقي صورة على الشبكية ، فتنظم العضلات العدسات بطريقة آلية إلى بؤرة محكمة. وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، هي في مجموعها ليست أسمكَ من ورقة رفيعة. والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات ، ويقال: إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط. وقد نظمت هذه كلها في تناسبٍ محكم بعضها بالنسبة إلى بعض وبالنسبة إلى العدسات ، ولكن العجيب أنها تدير ظهورها للعدسات وتنظر نحو الداخل لا نحو الخارج. وإذا استطعت أن تنظر في خلال العدسات فإنّك ترى عدوك مقلوب الوضع ، والجانب الأيمن منه هو الأيسر. وهذا أمر يُربِكُكَ إذا حاولت أن تدافع عن نفسك... ولذا فإن الطبيعة قد عرفت بطريقة ما ماذا سيحدث ، ولذا أجرت ذلك التصميم قبل أن تقدر العين على الإبصار ، ورتَّبت إعادة تنظيم كاملة عن طريق ملايين خويطات الأعصاب المؤدية إلى المخ. ثم رفعت مدى إدراكنا الحسي من الحرارة إلى الضوء ، وبذا

جعلت العين حساسة بالنسبة للضوء. وهكذا نرى صورة ملونة للعالم من الجانب الأيمن إلى فوق ، وهو احتياط بصري سليم.

وعدسة عينك تختلف في الكثافة ، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة. ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلاً. وكلّ هذه التنظيمات العجيبة للعدسات والعيدان والمخروطات والأعصاب وغيرها لا بد أنها حدثت في وقت واحد ، لأنه قبل أن تكمل كل واحدة منها كان الإبصارُ مستحيلاً فكيف استطاع كل عامل أن يعرف احتياجات العوامل الأخرى ويوائم بين نفسه وبينها؟!».

وعلى ذِكر العين ، أرى من الجميل أن أنقل إليكم رأياً لعالم كبير حول الرؤية وهو رأي طريف ، مُبَسّطاً منه ما يحتاج إلى التبسيط ، يقول: «العين آلة تخدم ارتسام صور الأشياء فينا (أي ترسم صور المرئيات في شبكيتنا داخل العين) وعليه: فهل الرؤية (رؤية العين للجسم) تتعلق بهذه الصور المرتسمة فينا أم تتعلق بالأجسام ذاتها؟ (أي هل رؤيتنا متعلقة بصور الأجسام المرتسمة على الشبكية أم تتعلق بالأجسام الخارجية نفسها) فإنْ كان الأول كما يقول علماء الطبيعة (أي إنْ كان قولُهم بأن رؤيتنا للأشياء حاصلة أو متعلقة بارتسام صورتها في الشبكية فيحق لنا أن نسأل هذا السؤال):

فكيف نشعر برؤية الأجسام والأشياء نفسها بكامل حجمها من رؤية صورها المرتسمة فينا (أي كيف نستطيع من صور الأجسام المرتسمة في باصرتنا أن نرى الأجسام نفسها على ما هي عليه من الكِبر والصغر) ونحن نميز الفرق بين رؤية الأشياء نفسها ورؤية صورها؟

فلو كانت رؤيتنا مثلاً للقصر الكبير الماثل أمامنا تعلّقت بصورته المرتسمة في باصرتنا (هذه الصورة) الآتية إلى الباصرة بمخروط الضوء

لاقتصر إدراكنا على رأس المخروط من دون شعور بقاعدته الكبيرة، ولكنّا رأينا القصرَ أصغر شيء مع أنّا نراه على حسب قاعدة الضياء المتصلة بالقصر المتناسبة مع حجمه الكبير لا على حسب رأسه (رأس المخروط الضوئي) المتصل بأعيننا.

فالعين أداة لرؤية الأشياء على قدرها من الصغر والكبر لا على قدر حدقتها الصغيرة كما تصور آلة التصوير الشمسي على حسب عدستها الكبيرة أو الصغيرة. أما فعل الرؤية التي لا توجد في أي آلة تصوير غير العين فهي حادثة روحية لا مادية».

ـ ١٥ ـ

الأذن وباقي الأعضاء

وتركيب الأذن لا يقل عجباً عن تركيب العين، فهو يتمشى مع قوانين الصوت وسنن التموج. فالصيوان والطبلة والمطرقة والسندان وأوتار كورتي كلها آلات لاستقبال الصوت وجمعه حسب سننه والتأثر به وإيصاله إلى المخ، ولو اختلت آلة واحدة لاختلّ السمع، أفلا يحق لنا بعد هذا أن نستشهد بقول ديكارت: إن الذي خلق الأذن ركبها بموجب قوانين الصوت؟ «إن جزءاً من أذن الإنسان هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حَنيةٍ (قوس) دقيقة معقدة، متدرجةٍ بنظام بالغ، في الحجم والشكل. ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية، ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط، وتنقل إلى المخ، بشكل ما، كلّ وقع صوت أو ضجة، من قصفِ الرعد إلى حفيف الشجر، فضلاً عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأوركسترا، ووحداتها المنسجمة. لو كان المراد عند تكوين الأذن أن تحسن خلاياها الأداء كي يعيش الإنسان، فلماذا لم يمتد

مداها حتى تصل إلى إرهاف السمع؟ لعل «القوة» التي وراء نشاط هذه الخلايا، قد توقعت حاجة الإنسان في المستقبل إلى الاستماع الذهني، أم أن المصادفة قد شاءت تكوين الأذن خيراً من المقصود؟...»[١].

وقُلْ مثالَ هذا عن باقي الأعضاء صغيرها وكبيرها:

فلسان المزمار مثلاً، وضعه الخالقُ في سقف الحلق لينظم عمليات الأكل والشرب ويمنعها من الدخول إلى الرئتين، فهو بمثابةِ الحارسِ الأمين الذي يعمل دوماً ونحن عنه غافلون. إن الذي ثَبّتَ هذا في مكانه -ولولاه لهلك الإنسان- لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض.

وإن الذي وضع البنكرياس والصفراء في الجوف عالمٌ بأنواع الأغذية التي يحتاجها الإنسانُ فزوّدهُ بما يحتاجه لتحليلها وهضمها.

«... عاش الإنسان ملايين السنين قبل أن يعرف وظائف المعامل الكيموية الصغيرة المعروفة باسم الغدد الصماء، التي تمده بالتركيبات الضرورية له ضرورة مطلقة، والتي تصنعها وتسيطر على وجوه نشاطه. وفضلاً عن ذلك، فإن تلك المواد التي بلغت من القوة أن جزءاً من بليون منها تُحدث آثاراً بعيدة المدى، هي مرتبةٌ بحيث ينظم كل منها غيرها، ويضبطه ويوازنه. ومن المتفق عليه أنّه إذا اختلّ توازنُ هذه الإفرازات المعقدة تعقيداً مدهشاً فإنها تحدث اختلالاً ذهنياً وجثمانياً بالغ الخطر. ولو عَمّتْ هذه الكارثة لاندثرت المدنية وانحطت البشرية إلى حالة الحيوانات، هذا إذا بقيت على قيد الحياة.

على أننا إذا أكّدنا هذه الضوابطَ والموازين والقيود وحدها، التي

---

(١) العلم يدعو للإيمان، ص ١٧.

بدونها تتوقف الحياة يواجهنا بمسألة حسابية تستحق قدراً كبيراً من العناية عند أنصار المصادفة!»[١].

ولو أردنا أن نستقصي كل جليل وصغير لطال بنا المقام وتشعب الحديث ولم نخرج عن الإنسان نفسه.

ولو أردنا أن نستقصي ما احتاط الخالقُ للإنسان والحيوان وما زوّده في جسمه وفي الخارج من أساليب الدفاع عنه وحِفظِ ذاته لأسهبنا الكثير. وكلها تدل أتَمّ دلالةٍ وأكملها على أن للإنسان خالقاً مُصَوّراً وإلهاً مُبدِعاً يحيطُ علمهُ بكل شيء، ولا يحيط بعلمهِ شيء.

- ١٦ -

برهان التسخير

نظرةٌ إلى الإنسان في هذا العالم تجده أنه هو المقصود بالخِلقة وأنّ ما سواه له تَبَعٌ، وأن له في حياته المادية والنفسية ما يشعره بذلك.. فهو الملكُ المبجَّلُ في هذه الدنيا..

سُخّر له الهواء فاخترق أجوازه وذلل سننه، وسخّر له الماء فقهره بالقناطر والسدود، وعبره بالقوارب والبواخر، وغير مجراه واستفاد من مساقطه، واستخدم النار فألانَ بها الحديدَ واستخدمها لما يريده، واستعان بالهواء عليها يضرمها ويوريها، وبالماء يخمدها ويطفيها، واستعان بكلّ على صاحبِهِ، ولم يدع حبله على غاربه.

وسخّر له عالم المعادن ما لم يسخر لغيره فاستدرّهُ من مناجمِهِ واستخرجه من أعمق الطبقات. استخرج الحديد وجعله طوعَ يديه،

---

(١) العلم يدعو للإيمان، ص ١٦٠.

وصنع منه كل ما يحتاج إليه وعمل بإخوته من المعادن ما عمل فيه حتى كشف المستور وفتح المُغْلق.

وعمل في عالم النبات ما لم يعملْ فيه غيرهُ من المخلوقات، فحرث وغرس وزرع وحصد ونقل وكيّف وزاوج وجمع، وعرف شروطَ الإنبات والتكثير واستخرج منها ما شاء لما شاء.

كما سُخِّرت له الحيوانات، فقهر السباع والأسود، وجعلها رهينة الأقفاص والقيود. وروّض الفيلة وذُلل له الجملُ الكبير فاقتاده من أنفه، وسخرت له الخيل والبغال والحمير ليركبها وزينة ويشدّ عليها رحاله، وتحمل أمتعته وأثقاله.

كما اصطاد الطيور وآلفها واستأنسها واستطاع أن يستخدمها، وكان في ذلك كله كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم].

كيف حدث هذا التسخير، ولِمَ انفرد به الإنسانُ لو كان الأمر قائماً كله على التخبط؟ وكيف حدث هذا التنظيم في التذليل لو كان الأمر قائماً كله على العبث؟ كيف يستعين الإنسان ببعض الحيوان على بعضه، وببعض المعادن على أختها، وبالقوة على ضدها؟

لم انفرد الإنسان بهذا الاستخلاف؟ ومَنْ أفرده؟ ومن ذلل له كل هذه الأشياء، وسخر له كل هذه النواميس؟ لم لا يكون هناك مخلوق آخر ينازعه السيادة، ويَتيه عليه بنعمةٍ تعادلُ نعمة العقل أو تبزّها؟!

من قال للتطور - إنْ صحّ - أن ينتهي إلى الإنسان، ولِمَ لا يحدثُ تطورٌ آخر وقفزة تالية تُنشئ مخلوقاً جديداً يكون له الإنسان كباقي المخلوقات للإنسان مُذَلّلاً مسخراً؟

أترى أنه لو حدثت مظاهرة غير سلمية من الخلائق ضد بني الإنسان وكلٌّ منه موتور ، أترى أنه لو اجتمعت كلمتها وتوحدت رايتها وأعلنت يوماً للانقضاض عليه ، الدنيا بما فيها من وحوشٍ كاسرة وزواحفَ سامة وحشرات متباينة وطيور جارحة وأتت كلها فرقاً منتظمة تزحف من جميع جهاتهم ومن فوقهم ومن أسفل منهم ، ماذا كان سيحدث؟

إنه تخرج أحياناً عساكر من النمل فتهربُ من وجوهها قرى كاملة ، ماذا إذن لو تَوحَّدت الجهود؟ أترى أنه سيبقى بشرٌ على وجه البسيطة؟ مَنْ صرف أنظارها عنه ، وأشاح بوجهها إلى غيره ، وملأ قلوبَها بالرعبِ منه؟ ذلكم هو الله الذي سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، وأسبغ علينا نِعمَهُ ظاهرةً وباطنة.

يقول أ. كريسي موريسون في كتابه (العلم يدعو للإيمان): «ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذي منعَ أيَّ حيوان ، مهما يكن من وحشيته أو ضخامته أو مكره ، من السيطرة على العالم منذ عصر الحيوانات القشرية المنجمدة! غير أن الإنسان وحده قد قلب هذا التوازن الذي للطبيعة بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر ، وسرعان ما لقي جزاءه القاسي على ذلك ، ماثلاً في تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات.

والواقعة الآتية فيها مَثلٌ بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان: فمنذ سنوات عديدة زُرع نوع من الصبار Cactus في أستراليا ، كسياج وقائي. ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا ، وزاحمَ أهالي المدن والقرى ، وأتلفَ مزارعهم وحال دون الزراعة ، ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن الانتشار ، وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيشٍ من الزرع

صامت ، يتقدم في سبيله دون عائق! وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره ، وهي سريعة الانتشار وليس لها عَدوّ يَعوقُها في أستراليا. وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار ، ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصدّ الصبار عن الانتشار إلى الأبد. وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائماً مجدية.

ولماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم إلى درجة كان أجدادنا يموتون معها، أو يكسبون مناعة منها، ومثل ذلك أيضاً يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك. كذلك البعوض كثير في المنطقة المتجمدة. ولماذا لم تتطوّرْ ذبابةُ «تسي تسي» حتى تستطيع أن تعيش أيضاً في غير مناطقها الحارة وتمحو الجنس البشري من الوجود؟ يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفاتكة التي لم يكن لها وقاءٌ منها حتى الأمس القريب، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهلٍ تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشري رغم ذلك يدعو حقاً إلى الدهشة!...

إن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان ، ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب. وحين تنمو الحشرات وتكبر ، لا تقدر تلك الأنابيب أن تُجاريها في نسبة تزايد حجمها. ومن ثم لم توجد قط حشرةٌ أطول من بضع بوصات ، ولم يطل جناح حشرة إلا قليلاً. وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها ، لم يكن في الإمكان وجود حشرة ضخمة. وهذا الحَدّ من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها ، ومنعها من السيطرة على العالم. ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي لما أمكنَ وجودُ الإنسان على ظهر الأرض. وتصور إنساناً فطرياً يلاقي زنبوراً يضاهي الأسد في ضخامته ، أو عنكباً «عنكبوتاً» في مثل هذا الحجم!

ولم يُذكر إلا القليلُ عن التنظيمات الأخرى المدهشة في فيزيولوجيا الحيوانات ، والتي بدونها ما كان أيّ حيوان ـ بل كذلك أي نبات ـ يمكن أن يبقى في الوجود. غير أن هذه الحقائق قد بلغت من الأهمية العظمى بحيث يجب ذِكْرُها».

ـ ١٧ ـ

قال أحد العلماء: إن تكوّن الإنسان بنفسه من النطفة المهينة من غير مُكوّن ، ومن غير شعور بذلك التكون الحاصل من نفسه ، مستحيل عند العقل.

ومع هذا فبلوغه الحلم وانكشاف غريزته الجنسية يكون بمثابة تولد جديد منه إلى العالم وقدوم جديد ، وعندئذ يجب عليه أن يفهم الدافع الخفي القوي الذي دفع أبويه لإبقاء النوع الإنساني من حيث لا يشعر على أكثر تقدير ، وهما ليسا بموجدين هذه الغريزة فيهما ، بل وجداها حاضرة لما جاء أوانها كما وجدها حاضرة في نفسه ، فمن الذي أوجدها وأَعدّها فينا؟

ـ ١٨ ـ

برهان الحياة

إن في الإنسان حياة وشعوراً ـ وهذا لا ينكره ولا يجهله أحد ـ فإن كان الكونُ كله فاقدَ الحياة فاقد الشعور فمن أين أتى الإنسانَ هذا الشعورُ، ومن أين أتته الحياة و«فاقدُ الشيء لا يعطيه»؟ إنه إنْ لم يكن في الكون كله مَنْ يفيضُ على الإنسان بالحياة والشعور ، فمن وهب للإنسان حياته وشعوره؟!

إنه سؤال لم يزل جوابه في المجهول ، ولم يجرؤ أحد أن يجيب عنه . حتى أن داروين لم يقل ـ بعد أن عجز ـ سوى أنه : لا يهمنا من أين أتته الحَياة ! !

وعلى كلٍّ فإن الأهمية لا يقدرها داروين ، فإن كان الأمر لا يهمه فهو يهمنا جداً .

ـ ١٩ ـ

إن في الإنسان عقلاً وتفكيراً . . . فمن زَوَّدَ الإنسانَ بعقله وتفكيره إنْ كان الكون كله خالياً من العقل والتفكير؟

إنه إن لم يكن في الكون قسطاسٌ للعقلِ والتفكير فمن أين أتانا العقلُ والتفكير؟ !

ـ ٢٠ ـ

أصل الحياة

يقول بعض الطبيعيين : إن تركيب الخلايا هذا التركيب الكيمياوي المعروف وبهذه النِّسَبِ الثابتة من العناصر المختلفة هو الذي منحها الحياة ، ومَنَّ عليها بالإحساس ، ووهبها هذه الصفات .

وأبسطُ ما يُردُّ عليهم : أنه لقد أظهر لكم المختبر جميع أجزاء الخلية وعرفتم جميع عناصرها وأوزانها ونسبها وتركيبها ، فَلِمَ إذن لم تُفلحوا في إنشاء خلية واحدة تنبض بالحياة وتتغذى وتنمو وتشعر وتتكاثر وتحتاط في الدفاع عن نفسها احتياطاً يعجز العقول ويأخذ بالألباب شأن «ذوات الخلية الواحدة»؟

إنه طلبٌ معقول كان وَجّهه أحدُ الكتاب المعروفين «هذه عناصر الخلية ، هاتوا لنا خلية حية».

وهَبْ أنهم أتوا بالخلية الحية ـ كما قال أحد العلماء ـ ، فهل ستملكُ صفات الخلية من نموٍّ وتكاثر وإحساس وباقي الصفات التي تملكها نظيراتها من الخلايا الحية؟

وأنه إذا كانت اتُّخِذَتْ خليةٌ حية ليعمل على منوالها ـ مثلاً ـ فهل ستكون الخلية الجديدة تملك نفس خصائص الخلية التي اتخذت أنموذجاً وتقوم بنفس المهمة؟

وإذا اتخذ إنسانٌ ما لِيُعْمَلَ على منواله فهل سيكون الإنسانُ الجديد ـ إنسان المختبر ـ يملكُ نفس خصائص وميزات وغرائز واحتمالات الإنسان الذي اتخذ أساساً للعمل؟

هل تستطيع أجهزتكم أن تكوّن لنا (نواة تمر) لها صفات النواة وخصائصها: خشبة صغيرة متى غُرست في الأرض انفرجت عن جذير وسويق وامتدت ضاربة في الهواء تحملُ الرّطبَ الجَنِيّ والثمرَ الشهي؟

هل تستطيع أجهزتكم أن تكون (بذرة) مرة قاطعة كبذرة المشمش مثلاً أو بذرة البرتقال حتى إذا غرست في الأرض وسقيت بالماء وصارت شجرة وارفة أتت بالثمار الحلوة والفاكهة الشهية؟

كيف يعقلُ ـ يا هؤلاء ـ أن يكون تركيبُ الخلية أصلَ حياتها ، والحياة هي التي تغذيها وتنميها وتحول المواد الجامدة فيها إلى مواد حية؟

إن الحياة هي التي تحفظ على الخلية وجودها ، وتجمع عناصرها ، وتمسكها من التحلل والافتراق ، فإنْ فارقتها الحياةُ ذهب وجودها ، واختفى تكوينها ، وافترقت عناصرها ، وتحللت موادها. إن الحياة هي

التي مسكتها من التفرق ، وعصمتها من التحلل ، وبدونها تفرق شملها وتمزَّقتْ أوصالها. كيف يعقل إذن أن يكون تركيب الخلية أصل حياتها مع أن الحياة هي التي حفظت على الخلية تركيبها ، ولولاها لتعفَّنتْ وضربتها الرياحُ وذهبت سدى ، ولتحلَّلتْ عناصرها وتمزقت أوصالها.

إن الحياة هي التي تجعل من المواد الميتة ، ومن العناصر المتحللة مواد حية تَضعُ كل مادة بمحلّها ، وتجمعُ بين هذا وذاك بنسبٍ ثابتة وتحفظُ تماسكَ هذه المواد على الوضعية التي أنتجتها.

إن الكائن الحي ذا الخلية الواحدة مثلاً وهو مخلوق بسيط : مَنْ يحفظُ مواده من أن تعبث به الرياح؟ من يمسك عناصره حتى لا تحطمه الطبيعة بحملاتها الشديدة؟ إنها الحياة.

ترى. ماذا سيحدث لو فارقتها الحياة؟ إنّ هذه المواد المتماسكة التي يزعم الزاعمون أن تماسكها وتركيبها هو أصل الحياة ستفقد تماسكها ، وتتحلل تراكيبها بعد خروج الحياة منها.

«لقد عجزت الطوائف عن بيان السبب لحياة الجراثيم ، حياة نباتية أو حيوانية خصوصاً بعدما تبين لهم: أن الحياةَ فاعلٌ في بسائط الجراثيم ، موجبٌ لالتئامها ، حافظ لكيانها ، وإن قوتها الغاذية هي التي تجعل غير الحي من الأجزاء حياً بالتغذية ، فإذا ضعفت الحياة ضَعُفَ تماسكُ البسائط وتجاذبها ثم صارت إلى الانحلال»[١].

إنه كما قال (جون هنتر) أكثر من مرة وأيده الباحث الكبير «توماس هكسلي» أحد أعضاء المجمع العلمي الإنجليزي في كتابه (المدخل على ترتيب الحيوانات): (إن الحياة هي علة الأجسام لا إنها نتيجة لها).

---

(١) الرد على الدهريين ، جمال الدين الأفغاني.

ومن تعليلات توماس هكسلي لصحة هذا القول: إنه في (جماعة الأميب من الحيوانات الساذجة) لا يصادفُ الباحثُ مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أيَّ أثرٍ للتركيب الجثماني فيها. فإن هذه الأحياء لا شكلَ لها ومجردة من الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة، ومع ذلك فهي تملك الخصائص والميزات الأصلية للحياة، حتى أنها لتستطيع أن تبتني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحياناً وعلى غاية ما يمكن من الجمال).

وعلى كلٍّ فإنْ ثبت هذا أو انتُقِضَ فلا يهدمُ الحقيقةَ التي قررناها أولاً. وجميلٌ ما يقوله أ. كريسي موريسون عن الحياة:

«الحياة تستخدم ذرات الأرض، وتخلق عجائب جديدة طبقاً لقوانين الكون... استخدمت الحياة طاقة الشمس، ومزقت ذرات الماء المتحدة، وفصلت الكربون البليد من الأوكسجين وحولته إلى ثاني أوكسيد الكربون، وخزنت في الأرض وفوق سطحها الموارد الوحيدة للنار»[١].

«وقد تغلبت الحياة على الظروف المتغايرة للماء والأرض والهواء، ولا تزال ماضية في طريقها في شكل نبات وحيوان، ومن الأميبا صاعداً إلى السمك والحشرات وذوات الثدي وطيور الجو، أو نازلاً إلى الجرثومية والمكروب والبكتيريا، وكذا النباتات التي لا حصر لها، وسواء في شكل خلية أو سمكة قرش أو عنكبوت أو ديناصور، أو إنسان، أو زرع، فإن الحياة تهيمن على العناصر، وتُرغمها على حلِّ تركيباتها، والاتحاد من جديد على أساس صلات أخرى...

أما المادة فإنها لم تفعل قط أكثر مما تُمليه قوانينها. فالذرات إنما تطيع قواعد الألفة الكيموية وقوة الجاذبية وتأثيرات درجة الحرارة والدوافع الكهربية.

---

(١) يعني الأشجار المندثرة والبترول.

والمادة ليست مبتكرة. أما الحياة فإنها تأتي إلى الوجود بتصميمات وتكوينات جديدة رائعة.

وبدون الحياة كان سطح الأرض يصيرُ صحراء شاسعة مجدبة، وفضاءً من ماءٍ غير نافع.

وبدون الحياة تكون المادة جامدة، ومتى تركتها الحياة عادت مجرد مادة. . .

وأما ما هيَ الحياة، فذلك لم يَدْرِه إنسانٌ بعد. فليس للحياة وزن ولا حجم.

. . . والطبيعة لم تخلق الحياة، فإن الصخور التي حرقتها النار، والبحار الخالية من الملح، لم تتوافر فيها الشروط اللازمة. وهل احتضنت الحياة هذه الأرض والكرات الأرضية الأخرى في انتظار فرصة يُزَوّدُ فيها الكونُ بقوة الإدراك؟ . . .

وقد أخذ الإنسان يدرس حدود الذرة، ويقيس قوتها المخزونة، غير أن الحياة نفسها خداعة، مثل الفضاء لماذا؟

والحياة منتظمة على وتيرة واحدة في بذل جهدها لإحياء المادة. . .

والحياة هي المصدر الوحيد للوعي والشعور، وهي وحدها التي تجعلنا ندرك صنعة الله ويبهرنا جماله وإن كانت أعيننا لا تزال فوقها غشاوة.

إن الحياة ليست إلا أداة تخدم مقاصد الخالق سبحانه، وعلى هذا فالحياة باقية كمشيئته تعالى!».

يقول ج. آرثر فندلاي:

«. . . فما السبب في أن الشجرة المزهرة تحتفظ بشكلها وأوراقها،

على حين تتناثر شجرة أخرى من تلك التي نسميها «ميتة» وتتساقط أجزاؤها عند لمسها وتتفتت في الثرى؟ لا بد أن يكون هنالك ثمة شيء ، وهو ما سميناه «حياة» ، هو الذي يوجد في الكائن الحي وينعشه ويختفي من الكائن الميت ، ولهذا الشيء قدرة على إكساب المادة الشكل واللون ، فإذا ما اختفى ذهب باختفائه الشكلُ واللون ، ويثوي الشيء الذي كان حياً فيما مضى إلى الأرض مكوناً جزءاً منها .

من ثم يتضح أن هناك شيئاً لا يمكن أن نراه ولا أن نلمسه ، ولكنه مع ذلك حقيقي وقادر وله خاصية تشكيل الصور من الأرض غير الحية. أقول: إنه لا بد أن يكون قادراً ، لأنه يقوى على رفع المادة رغم قوة الجاذبية ، ويستطيع الاحتفاظ بها في وضع معتدل ، فإذا ترك المادةَ عادت لقوة الجاذبية سيطرتُها ، وتأثرت المادةُ بقوة الطبيعة كلها ، فالإنسان أو الحيوان أو النبات يمكنه أن يقف معتدلاً عندما تَسري فيه هذه القوة ، فإذا ما وقف سَريانُها هوى هؤلاء جميعاً إلى الأرض. فالحياةُ قوة منظمة تقاوم في المادة ميلَها إلى الاختلال وعدم الانتظام .

الحياة قوة منظمة مفكرة تسري في المادة فتنظمها ، وبدونها تكون المادة مختلّة النظام. فهي إذن لا يمكن أن تكون جزءاً من المادة إلا إذا كان صانع الخزفة جزءاً من الصلصال الذي يَصُوغه أوانيَ ، وعدا هذا فللحياة شخصية .

لكل كائن حي شخصية ، لأن كل كائن حي يختلف عن غيره من الكائنات الحية .

وبهذا التدليل يكون لهذه الحياة قوة تقصر عنها القوى المادية . فهي أقوى من المادة ، وهي تستطيع تنظيم المادة ، وعلى ذلك فهي تفكر ولها فضلاً على ذلك ذاتية. وإذن نستطيع آمنين أن نخطو خطوة أخرى إلى

الأمام فنقول: إنّ العقل يؤثر في هذه القوة المنظمة. وإن هذا الذي نسميه العقل لا بد أن يكون قوة حية نشطة سائدة حاكمة في الكون. فالعقل يحكم الحياة والحياة تحكم المادة»[١].

ـ ٢١ ـ

السَّوْق الطبيعي «الغرائز»

إن أمر «السوق الطبيعي» أو ما نسميه بـ «الغرائز» أمر عجيب. إذ كيف تهتدي هذه الأحياء من أكبرها إلى أصغرها إلى ما يُبقيها ويُصلحها، وتأتي بالأعمال المحيرة المدهشة في سبيل حفظ كيانها، وبقاء نوعها، حتى نجد الحشرات الصغيرة وذوات الخلية الواحدة ممتعة بالعلم في أصول الدفاع عن نفسها، واقتناص فرائسها، واستخدام جميع الحيل وأعقد الشِّراكِ مما يعجزُ عنه اللبيب، ويحار له الذكي الأريب؟

انظر إلى الأحياء مجتمعة من الإنسان إلى ذوات الخلية الواحدة، تَرَها مدفوعة بدافع خفي قوي لإبقاء نوعها ودوام جنسها وذلك بغريزة الجنس حتى لا تهلك وتبيد.

مَنْ منحها هذا الدافع الخفي؟ ومن منحها هذه القوة الخارقة والسر العجيب وليس لها حيلة في وجوده ودفعه وإبقائه؟

من زَوَّدَ الأحياء بهذا الحب الكبير والحنان الزائد لصغارها لتربيتها والإشراف عليها والسعي لتغذيتها والقيام لحراستها والدفاع عنها دفاعاً مستميتاً؟

---

(١) على حافة العالم الأثيري ص ٤٣.

من جعل الحيوانات والطيور القوية منها والضعيفة ، تذود عن أفراخها وأبنائها وتُفضِّلُ الموتَ دونها على أن تُسلمها للأذى؟

مَنْ جعل نوعاً من الحمام يُخلص لزوجه ويوفي بحقه وحُسْنِ عشرته ، حتى إذا مات زوجه وبان عنه عشيره حزن واغتم وامتنع عن الطعام وفاءً لصاحبه حتى يلحق به؟

راقبِ النحل وراقب النمل تَرَ في كيفية معيشته وأساليب حياته وتنظيم أمره ما يأخذ بلبك ، مَنْ هَداهُ إلى ذلك ، ومن أجبره على هذا النوع من المعيشة؟

من عَلَّم العناكب هذه الحيل الماكرة لاصطياد فرائسه ، وإيقاعها في شباكه؟ ومن علمه صنع «معابر» من القش والعيدان والأوراق يربط بينها بخيوطه ويضع فيها مواد غذائه إذا أراد العبور ولم يستطع أن يحمل ما عنده بنفسه؟ مَنْ علّمه صنع الجسور وعمل السلالم من لعابه؟

نظرة أخرى تر أعمالاً تقوم بها الغرائز تحار في أمرها : «فالقضاعة مثلاً مع كونها أغبى الحيوانات تُنشىء لنفسها في الماء بيتاً وطرقاً وسداداً ، وقد أخذ بعض الناس فراخها ونشَّأها في بُعْدٍ عن آبائها وأمهاتها وجعلها في قفص لئلا تحتاج إلى إنشاء البيوت ، ثم لما وضعها في الماء عادت إلى الإنشاء فمن علمها ذلك ، وهي لا تظهر قدرة في غير هذا الفعل؟» .

يقول أ. كريسي موريسون :

« . . . إن الطيور لها غريزة العودة إلى الموطن. فعصفور الهزار الذي عشش ببابك يهاجر جنوباً في الخريف. ولكنه يعود إلى عشه القديم في الربيع التالي. وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا إلى الجنوب ، وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق عرض البحار ، ولكنها لا تَضِلُّ طريقَها. والحمام الزاجل إذا تَحيَّر من جراء أصوات

جديدة عليه في رحلة طويلة داخل قفص يحوم برهة ثم يقصد قُدُماً إلى موطنه دون أن يضل. . . والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كلَّ دليلٍ يُرى . . .

وأنت إذا تركتَ حصانك العجوز وحده فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل. وهو يقدر أن يرى ولو في غير وضوح ، ولكنه يلحظ اختلاف درجة اختلاف الحرارة في الطريق وجانبيه ، بعينين تَأثرتا قليلاً بالأشعة تحت الحمراء التي للطريق. والبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافىء اللطيف وهو يجري على العشب البارد مهما تكن ظلمة الليل.

إن إحدى العناكب «جمع عنكبوت» المائية تصنع لنفسها عشاً على شكل منطاد «بالون» من خيوط بيت العنكبوت وتُعلِّقه بشيء تحت الماء. ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر تحت جسمها ، وتحملها إلى الماء ثم تطلقها تحت العش ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش ، وعندئذ تلد صغارها وتربيها ، آمنةً عليها من هبوب الهواء.

فهاهنا نجد طريقة النسج ، بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية. . .

وسمك «السلمون» الصغير يُمضي سنواتٍ في البحر ، ثم يعود إلى نهره الخاص به. والأكثر من ذلك أنه يصعد جانب النهر الذي يصب عنده النُّهير الذي ولد فيه. وقد تكون قوانين الولاية الأمريكية التي على أحد جانبي النهر صارمة ، وقوانين الولاية التي على الجانب الآخر غير صارمة ، ولكن هذه القوانين إنما تسري على السمك الذي يمكن أن يقال عنه أنه يَخصُّ جانباً دون آخر . . فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد؟ إن سمكة «السلمون» التي تسبح في النهر صُعُداً ، إذا نقلت إلى نُهير آخر أدركت تواً أنه ليس جدولها ، فهي لذلك تشق طريقها خلال النهر ثم تحيد ضد التيار قاصدة إلى مصيرها.

وهناك لغز أصعب من ذلك يتطلب الحل وهو الخاص بثعابين الماء التي تسلك عكس هذا المسلك ، فإن تلك المخلوقات العجيبة متى اكتمل نموها ، هاجرت من مختلف البرك والأنهار ، وإذا كانت في أوروبا قطعت آلاف الأميال في المحيط ، قاصدة كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا وهناك تبيض وتموت.

أما صغارها ـ تلك التي لا تملك وسيلة لتعرفَ بها أيَّ شيء سوى أنها في مياه قَفْرة ـ فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها ، ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة ، ولذا يظل كل جسم من الماء آهلاً بثعابين البحار.

لقد قاومت التيارات القوية وثبتت للأمداد والعواصف ، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطئ. وهي الآن يتاح لها النمو ، حتى إذا اكتمل نموها دفعها قانون خفي إلى الرجوع حيث كانت بعد أن تتم الرحلة كلها ، فمن أين ينشأ الحافز الذي يوجهها لذلك؟

لم يحدث قط أنْ صِيدَ ثعبانُ ماءٍ أمريكي في المياه الأوروبية ، أو صيد ثعبان أوروبي في المياه الأمريكية. والطبيعة[١] تبطئ في إنماء ثعبان الماء الأوروبي مدة سنة أو أكثر لتعوض من زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها. **ترى هل الذرات والهباءات إذا توحدت معاً في ثعبان الماء ، يكون لها حاسة التوجيه وقوة الإدراك اللازمة للتنفيذ؟**

وإذا حمل الريح فراشة أنثى من خلال نافذة إلى علّية بيتك ، فإنها لا تلبث أن ترسل إشارة خفية ، وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة ولكنه يتلقى تلك الإشارة ويجاوبها مهما أحدثتَ أنت من رائحة بمعملكَ

---

(١) الأحسن أن يقال: وثعبان الماء الأوروبي يبطئ في نموه سنة أو أكثر لتعوض زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها. ع. ز.

لتضليلهما. ترى هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة، وهل لذكرِ الفراشةِ جهاز راديو عقلي فضلاً عن السلك اللاقط للصوت (إيريال) أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز؟

إن التلفون والراديو هما من العجائب الآلية، وهما يتيحان لنا الاتصال السريع، ولكنا مرتبطون في شأنهما بسلك ومكان... وعلى ذلك لا تزال الفراشة متفوقة علينا من هذه الوجهة، وليس لنا إلا أن نحسدها على ذلك حتى تبتكر عقولنا راديو فردياً. وعندئذ نكتسب القدرة على «انتقال الفكر» من بعض الوجوه»[١].

ويقول في (تطور العقل) قولاً له علاقة وثيقة بما نحن بصدده: «فالزنبور مثلاً يصيد الجندب (النطاط) ويحفر حفرة في الأرض، ويَخِزُ الجندبَ في المكان المناسب تماماً حتى يفقد وعيه ولكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ... وأنثى (الزنبور) تضع بيضاً في المكان المناسب بالضبط، ولعلها لا تدري أن صغارها حين تفقس يمكنها أن تتغذى دون أن تقتل الحشرة التي هي غذاؤها فيكون ذلك خطراً على وجودها. ولا بد أن (الزنبور) قد فعل ذلك من البداية وكرره دائماً، وإلاّ ما بقيت زنابير على وجه الأرض.

والعلم لا يجد تفسيراً لهذه الظاهرة الخفية، ولكنها مع ذلك لا يمكن أن تُنسب إلى المصادفة! إن أنثى (الزنبور) تغطي حفرة في الأرض، وترحل فرحاً، ثم تموت. فلا هي ولا أسلافها قد تكون في هذه العملية، ولا هي تعلم ماذا يحدث لصغارها، أو أن هناك شيئاً يسمى صغاراً... بل إنها لا تدري أنها عاشت وعملت لحفظ نوعها...

---

(١) العلم يدعو للإيمان ١١٣ ـ ١٢٢.

والنمل يأسر طوائف معينة منه ويسترقُّها. وبعض النمل حين يصنع أعشاشه، يقطع الأوراق مطابقة للحجم المطلوب، وبينما يضع بعض عَمَلَةِ النملِ الأطراف في مكانها، تستخدم صغارها ـ التي وهي في الطَّوْرِ اليَرَقي تقدر أن تغزل الحرير ـ لحياكتها معاً. وربما حرم طفل النملة فرصة عمل شرنقة لنفسه ولكنه قد خدم الجماعة! فكيف يتاح لذرات المادة التي تتكون منها النملة أن تقوم بهذه العمليات المعقدة؟

لا شك أن هناك خالقاً أرشدها إلى كل ذلك!»(١).

ولا يقتصر عمل «السوق الطبيعي» على الغرائز، فحجيرات البدن وأفعالها المتنوعة التي تصدر منها «بدون أي نوع من أنواع الشعور ولا تنطبق على أي صفة وماهية للضرورة الميكانيكية وهي تتبدل وتتنوع على حسب الحاجات اليومية»، تدل أكمل دلالة على أن هناك قوة عليا تهديها إلى وظائفها وتجعلها قادرة على العمل بما تناط به من واجبات.

وقال في (أصل الحياة) ص ٩٩ وما بعدها:

«... ثم دعيت كل خلية لأن تؤدي مهمة وكلت إليها. وتدريجياً مع تكليفها تلك المهام أصبح في حيز الإمكان أن يقوم المجموع بوجوه جديدة من النشاط... فهناك مجموعة منها صنعت غطاء وقائياً كثيفاً، كقشر الشجرة. وأخرى كانت مشغولة بنقل الغذاء من مكان إلى آخر في المخلوق الحي. وأخيراً نجدها مشغولة بتكوين الخشب في الجذوع، أو بتكون العظام والأصداف لتدعم جرمها المتجمع النامي...

وقد يمكن السؤال عما إذا كان للخلايا فَهمٌ وإدراك أم لا. وسواء اعتقدنا أنّ الطبيعة(٢) قد زودت الخلايا بالغريزة ـ مهما تكن هذه ـ أو بقوة

---

(١) العلم يدعو للإيمان ١٢٩ ـ ١٣٢.

(٢) الأصح أن يقال الخالق ـ ع.ز.

التفكير ، أم لم نعتقد ذلك ، فلا مناص لنا من الاعتراف بأن الخلايا ترغم على تغيير شكلها وطبيعتها كلها لكي تتمشى مع احتياجات الكائن الذي هو جزء منه. وكل خلية تنتج في أي مخلوق حي يجب أن تكيّف نفسها لتكون جزءاً من اللحم، أو أن تضحي نفسها كجزء من الجلد الذي لا يلبث حتى يبلى. وعليها أن تضع ميناء الأسنان وأن تنتج السائل الشفاف في العين، أو أن تدخل في تكوين الأنف والأذن. ثم على كل خلية أن تُكيّفَ نفسها من حيث الشكل وكل خاصية أخرى لازمة لتأدية مهمتها. . .

إنَّ مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب وفي المكان الصواب ، والحق أنها طائعة! والحياة تدفع إلى الأمام ، بانيةً مصلحة متوسعة ، وخالقة ما هو حديث وما هو أفضل بنشاط لا يفتر ولا مثيل له في الأشياء الجامدة. فهل هذا ناشئ عن إدراك أم عن غريزة؟ أم أنه أمر يحدث فحسب؟ يمكن أن تجيب عن ذلك بنفسك» .

ـ ٢٢ ـ

البرهان الأخلاقي (١)

وَجِّه نظركَ وأَدِرْ بصرك إلى أخلاق الإنسان وخلاله ، وعاداته وخصاله ، تَرَ طرفاً غير يسير مما نسميه بـ «الأخلاق» متفقاً عليه في جميع أمم الأرض وشعوب الدنيا ، وعلى مر الزمن وكر الدهور لم يغيرها مَرّ الحوادث ولا تتابع الأيام. . فالأمانة والوفاء ، والإخلاص والتفاني ، والتضحية ، والصدق والعفة ، والنزاهة والدماثة ، والغيرة والكرامة ،

(١) تكلم فيه من الغربيين الفيلسوف الألماني عمانؤيل كانت.

والذود عن الضعفاء ، والانتصار للمظلومين ، مما تقره الإنسانية وتستحسنه البشرية وتدعو إليه وتنادي له ، لم تغيرها الأيام ولم يُسقطها العرفُ ولم تستهجنها العادات بعكس الغدر والخيانة ، والجبن ، والقعود عن نصرة الحق ، والرشوة والاختلاس ، والتزوير والسرقة ، والوقاحة وفقدان الكرامة ، وسقوط النفس والاعتداء مما تَنفرهُ البشرية وتُحذّرُ منه والسقوط فيه.

لقد تغيرت النظرات في كثير من الأمور ، واختلفت المقاييس والموازين في غير واحد من الشؤون ، وتعددت العادات وتباينت في جميع الشعوب حتى أَقَرَّ شعبٌ ما كان يُنكره ، وأنكرَ ما كان يُقِرُّه ، واستهجنَ شعبٌ عادات آخرين.

فَعلامَ إذن هذا الثبوت في الخلال التي ذكرناها آنفاً؟ ومن أين جاء الإقرار بها على أنها أمر مُسَلَّمٌ به في جميع الشعوب وعلى طول الزمن ، ولِمَ ذاك؟

إن الإنسان منذ نشأته وقبل أيٍّ من التجارب يعرفُ أن الاعتداء تجاوز ، يُحِسُّ به المعتدي والمعتدى عليه. وأن السرقة سَلبٌ لحقوق الغير ، يعرف ذلك السارق والمسروق منه ، فمن غرس هذا الشعور في نفسه وجعله من مستلزمات اعتقاده؟

إن طرفاً من هذه لا يقتصر الشعور به على الإنسان وحده بل يتعداه إلى الحيوان أيضاً. فالقط يعرف أنّ ما يستلبه خلسة منك لا يرضيك فيهرب من وجهك بعكس ما تمنحه إياه أنت بنفسك ، والحيوانات والطيور تعرف حقها فيما تجمعه وتمتلكه فلا تُسلم عشها وبيتها لكل معتدٍ. فمن غرس هذا القانون الأخلاقي الواسع في الإنسان ، وغرس قسطاً منه في الحيوانات تعرف به حقها وتستنكر الاعتداءات الموجهة إليها؟

إن الطفل الذي لم يعرف العادات بعد ولم يَطَّلعْ على العرف يحس أنه معتدٍ حينما يستلب شيئاً من قرينه والآخر يعرف أنه مُعتدى عليه. فمن الذي وضع الميزان في نفسه ميزان الأخلاق؟

مَنْ حَبَّبَ الواجبَ الثقيل إلى الإنسان يقوم به على ما يفوّت عليه مصلحة قريبة أو بعيدة؟

إن هناك من الغيارى مَنْ إذا رأى أحداً يعتدي على ضعيف أو عاجز يؤذيه في نفسه أو يسلبه حقه، تراه مندفعاً لنصرة هذا العاجز مناصباً للمعتدي العداء، معلناً له الخصومة، ولو لم تكن له مصلحة في ذلك، بل ولو أدى أحياناً إلى الإضرار بنفسه وبمصلحته.

من علّم الإنسان أن يضحي بمصلحته بلا فائدة يرجوها؟

وهل هناك من يقول بعد كل ما تقدم: إن القيمَ الأخلاقية عادةٌ استحسنها الناسُ، وقد عرفنا مدى تهاوي هذا القول وضعفه؟!

إنَّ العادة ـ يا هؤلاء ـ ليست تعليلاً. فالعادة لا تنشأ إلا أن يقوم بها فرد أو أفراد يعملون بها مدة، وبتكرار المشاهدة يألفُ المجتمع حدوثَها وقد يعتادها.

فمن حَبَّبَ إلى أولئك الأفراد الأوائل ممن لم يشاهدوا أحداً يعمل بها لأن يقوموا بها ويضحوا أحياناً بمصالحهم في سبيلها؟

إن المجتمع لم يفرضها عليهم ولم يكن يعرفها فيستحسنها. فَلِمَ حدثت إذن؟ وأي دافع دفع أولئك الأفراد إنْ لم يكن في الكون مَنْ يغرس القيمَ الأخلاقية في النفوس؟

وقد يسوغُ لقصيرِ نظرٍ أن يزعم أنها «المصلحة الاجتماعية» فيكون قد أخذ بخناق نفسه، وذلك ما كنا نبغي. فَلِمَ كانت المصلحةُ الاجتماعية هي المفضلة عند الأفراد على مصالحهم الخاصة؟

لِمَ كانت المصلحة الاجتماعية لا بد من إقرارها في الدنيا ، ولِمَ كانت «أمراً مفروغاً منه مقْضياً بوقوعه» ملزماً للعمل فيه ، «لماذا تُعلَّلُ المصلحةُ الاجتماعية نشوءَ العادة ولا تحتاج هي إلى تعليل»؟ ثم مَنْ غرس حُبَّ المصلحة الاجتماعية عند أولئك الأفراد الأوائل وجعلها مثلاً أعلى يعملون له على ما يفوت من مصالحهم أحياناً؟

ثم أي مصلحة اجتماعية ـ كان يرجوها ـ في أن يدفع ذلك الغيور الأذى عن ذلك العاجز الضعيف؟ إنه حينما قام بذلك لم يكن ليفكر في مصلحة اجتماعية عليا ، إنها الرغبة في صد الاعتداء فحسب ، أَوَ كلّ الذين يدفعون الاعتداء عن الأفراد أو يُوصِلُونَ الخيرَ إليهم يحسون بمصلحة اجتماعية عليا أو يفكرون فيها؟

بل وأي مصلحة اجتماعية في أن يستدين شخص من آخر فيديّنه أموالاً كثيرة بلا ورقة ولا شهود وبدون علم أحدٍ من الناس؟ أهناك مصلحةٌ اجتماعية في هذا الصنيع أم هي الرغبةُ في عملِ الخير وحدها؟

وعلى كلٍّ فإن كان هذا أو ذاك ، فإن الأخلاق لو لم تجد سنداً في النفس وأصلاً في الفطرة فليس من الممكن أن يفرضها عليها أحدٌ من الخارج فرضاً ويجبرها على ما لم تُهيأ له.

وبهذا عرفتَ أيضاً مدى تهافت القول القائل بأن الأخلاق نشأت نتيجة الكبتِ الواقع على الإنسان من الخارج. كما عرفت به مدى تهافت قول «فرويد» زعيم هذا الرأي.

يقول الأستاذ محمد قطب:

«. . . يصر فرويد على أن هذا الجانب لم ينشأ نشأة ذاتية ، وإنما نشأ نتيجة الكبت الذي وقع على الطاقة الغريزية الميّالة إلى الاعتداء. ونسلّم

بذلك توفيراً للوقت والجدل ولكن فرويد تهرب من هذا السؤال: من الذي فرض الكبت على البشرية؟

من الذي قال للإنسان الأول: هذا عيب لا يجوز أن يُعمل؟»[١].

«من فرض الكبت على ذلك الرجل الدائن الذي ضربناه مثلاً: أهو الدين، والدِّينُ يأمر بكتابة الدَّيْن. أم المجتمع، والمجتمع لا يرضى أن يضع الناس أموالهم في مثار الريبة؟ ولكن هؤلاء مخطئون في بديهية لا يتطلبُ فهمها ولا تصديقها شيئاً من إعمال الفكر.

فلولا أن الطبيعةَ البشرية في ذاتها قابلةٌ للتهذيب لَمَا أمكن تهذيبها مهما كانت المحاولة المبذولة لذلك، ومهما كان عنف «السلطان» الذي يفرض هذا التهذيب.

بل إن بعض أنواع الحيوان ليمكن تهذيبه إلى حَدٍّ يذهبُ بوحشيته الأصلية، أو بكثير منها على الأقل، فكيف إذن ينكر المنكرون على الإنسان، وهو أرقى مخلوق باعتراف الجميع، أن تتهذب طِباعُه ويسمو إلى «الغيرية» وإلى «الإنسانية»[٢]؟

ويقول في ص ٢٧٥:

«فلنعد إلى أقذر صورة تخيلها للإنسانية ذهن إنسان! الصورة التي رسمها فرويد جاهداً ليلوث بها كل جميل في مشاعر البشر!

لنعد إلى هذه الصورة ذاتها، لنجد الجوابَ على غير ما يزعم الهابطون والمنحلون وصغار النفوس.

قتلتِ الإنسانيةُ أباها الأول، ليستمتع الأولادُ بأمهم في شهوةِ جنسٍ

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام، ص ١٨٢.
(٢) الإنسان بين المادية والإسلام، ص ١٠٧.

دَنِسٍ مسعور. ولكنهم ما كادوا يصنعون ذلك، ويرون أباهم جثة هامدة، حتى اعتراهم الندم على فِعلتهم الآثمة...

ونأخذُ الرجلَ من لسانهِ!

فمن أين أتى شعور الندم لهذه الحيوانات الهائجة التي تتصرف بدوافع الحيوان؟ مَنْ ذا الذي أوحى إليهم بأن عملهم هذا كان خطأ لا يجوز؟

إننا هنا أمام أول شعور إنساني يفرق بين الإنسان والحيوان، وذلك على فرض أن القصة كلها صحيحة، وفرويد نفسه لا يملك على ذلك أي دليل. فهذا الندم على الجريمة يُؤكّدُ وجودَ الحاسة التي تفرق بين ما ينبغي وما لا ينبغي أن يعمل. وبين ما هو خيّر وشرير. حاسة تقدر «قيماً» ذاتية للأعمال، بصرف النظر عن الدافع الغريزي الذي يدفع إليها.

هذه واحدة.

ثم نظرَ الأبناءُ فيما بينهم فوجدوا أن أحداً منهم لن يفوز بأمه وحده إلا إذا قتلَ الآخرين. وإذن فستنشبُ معركة عنيفة لا تؤدي إلى تحقيق المصلحة المنشودة، فاتفقوا بينهم على أن يتركوا أمهم لا يمسها أحد منهم، وينصرفوا راشدين متآخين، بدلاً من أنْ يقتتلوا فينقلبوا خاسرين!

وهذه هي الثانية.

فهنا شعور إنساني آخر: شعور التآخي على مصلحة عامة، بدل الأنانية القاتلة والصراع المرذول.

ولا يقف ما نستخلصه من القصة عند هذا الحد. فهي تُثبتُ كذلك مقدرةَ الإنسان على «ضبط» نوازعه الفطرية في سبيل الخير العام، الذي يعود في نهاية الأمر على كل فرد بما فيه مصلحته الخاصة...

إن هذا الاعترافَ الذي أقرَّ به فرويد، دون أن يدري، ليهدم كل ما

أقامه بعد ذلك من نظرياتٍ مُلوَّثة ، وتصميمات خبيثة . فهو ينفي الجبرية النفسية ، إذ يقر بالإرادة الضابطة التي امتنع بها الأولاد عن غشيان أمهم . وينفي أن كل مشاعر الإنسان غريزية ، إذ يقرر إحساسَ الأولاد بالندم على ما صنعوه بدافع الغريزة ، وينفي أن القيم الأخلاقية مفروضة على الإنسان من قوة قاهرة خارج نفسه ، فهذا الندمُ ذاته قيمةٌ أخلاقية أحسَّ بها الأبناء تلقائياً لحظة انتهائهم من الجريمة .

فمِنْ هذا الظلام الهابط الكريه يشاء الله أن يخرجَ بصيصٌ من النور» .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس] .

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم] .

- ٢٣ -

برهان المبادئ الذهنية

وهي مبادئ أولية موجودة عند كل إنسان يشترك بها بنو البشر قاطبة .

(كمبدأ الاستحالة) فإذا أخبرت إنساناً ما بأن شخصاً موجود ومعدوم ، وحيّ وميت ، في مكان واحد ووقت واحد أدرك استحالة هذا الخبر وأن هذا «تناقض» . وإذا أخبرته بأن الظلام الدامس والضياء الوهاج لَفَّ مكاناً ما فهو مظلم مضيء في آن واحد ، أدرك تواً بأنك تسخر من عقله .

(وكمبدأ السببية) وهو علم الإنسان بأن لا يحدث شيء قط إلا بسبب . (وكالبديهيات) التي يُسَلِّمُ بها العقلُ تسليماً كاملاً من دون الحاجة

إلى برهان ككونِ الكلّ أكبر من جزئه وهو يساوي مجموع أجوائه. وأن الاثنين أكثر من الواحد وغيرها. . .

هذه المبادئ الأولى ونظائرها يجدها الإنسان حاضرة في نفسه. فَمَنْ أوجدها فيه إن لم يكن هناك قسطاس للعلم يغرس فيه هذه المبادئ العامة المُسَلّم بها عند جميع البشر، وإذ لو احتاج كل شيء إلى برهنة لاستحال العلم» كما قال أرسطو؟

وجميل ما يقوله أحد العلماء: «لو كانت المبادئ الأولى متكونة على التدريج من تداعي من التجارب المحسوسة وتراكمها لزم أن توجد في البهائم أيضاً لأنها تشاركنا في الإحساس بل هي أقوى فيه منا».

ثم إن الإنسان حينما يريد أن يدرس أي علم يجد مبادئه حاضرة في نفسه، ويجد نفسه مسلماً بأولياته التي تُلقى عليه ويتلقاها بالقبول.

فمن أوجد كل هذا في نفسه إن لم يكن هناك (عالم) يشعر بحاجة الإنسان إلى العلوم فزوّده بمبادئها وما يحتاج إليه[١]؟!

ـ ٢٤ ـ

برهان الفطرة

إن الإقرار بالله تعالى حقيقة مغروسة في النفوس، وهي مستورة بنوازع شتى إلا أنها تظهر على حقيقتها وتبدو على سَجِيَّتها متى تَقطَّعت حبال النوازع المادية، ومتى ما نزل بالإنسان مكروهٌ يعجز عن دفعهِ أو

---

(١) ثم من البديهيات وحسب مبدأ النسبية: أن لكل حادث موجداً وهذا الكون حادث كما نراه فلا بد له من موجد لا يحتاج وجودُه إلى شيء آخر وذاك هو الله الغنيُّ عما سواه. ع. ز.

مرض لا حيلة له في الخلاص ولا أمل في النجاة منه ، وانقطع أمله من الأطباء والمداوين. عندما لا يرى مُنجداً حقيقياً ويغيبُ عنه كل ناصر فعند ذاك يظهر صوتُ الفطرة وتبدو النفس على حقيقتها.

«إن محاولات العقل البشري هي الساترة للمركوز في النفس في حالتنا الاعتيادية هذه ، وبالوقوع في مأزق يشل قوى العقل ، ومنطقه المادي الكسبي و(تبدأ) تعمل قوى النفس يظهر من حقائقها ما حجبه خطأ التعليم»(١).

عندئذ تنكشف الفطرة على سجيتها وتتحرك الغريزة بطبيعتها. فسبحان الذي أودع معرفته هذه النفوس: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ۝٨﴾ [الزمر] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۝٦٧﴾ [الإسراء].

ـ ٢٥ ـ

برهان الذات

إن هذا البرهان على بساطته حجةٌ دامغة ودليل قاطع في إثبات وجود الله والروح معاً وإن كان إثباته للروح أظهر وأوضح.

وهو أن كل إنسان يعرف ذاته ويشعر بوجوده. وليس هناك من ينكر هذا إطلاقاً. فَمَنْ أشعره بوجودهِ وعَرَّفَهُ بذاته؟

إنه ليس في جسمه ما يُشعره بوجوده ، ويعلمه بذاته. إنه من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه عظام ولحم وعصب ، وهذه كلها غافلة عن نفسها لا تدرك ذاتها ولا تشعر بوجودها. وقياساً على ذلك ينبغي أن

---

(١) لماذا أنا مسلم ، عبد الرحمن العيسوي.

يكون الإنسان دوماً غافلاً عن نفسه كالنائم ، أجهزته كلها بكامل حياتها وكل عضو يؤدي وظيفته وهو غافل عن نفسه جملةً لا يعرف ذاته ولا يحس بنفسه .

من غرس في الإنسان معرفته بنفسه وشعوره بذاته؟ كيف يعرف الإنسان نفسه؟ إنه تُقطع يداه ورجلاه ، ويطير فكُّهُ وتُرمى أذنه ، ومع ذلك فهو يبقى محافظاً على شعوره بذاته وعلى علمه بنفسه تماماً ، مما يدل على أنه ليس هناك أي أثر لهذه كلها في هذا الشعور وتلك المعرفة ، إن بقاءها وعدمها سيان لا تؤثر على إدراكه لوجوده وشعوره بنفسه .

إن مظنة المعرفة أنها صادرة عن العقل ، وإذا أثبتنا بطلان ذلك فقد أثبتنا ضرورة أنه هناك من يعلمهُ بوجوده .

هل يعرف الدماغ نفسه؟ هل يعلم الدماغ عن نفسه أنه مادة بيضاء ، مغلفة بمادة سنجابية ، مُكوّنٌ من مقاطع وأخاديد تتباين وظائفها ، وتتعدد أعمالها؟ وهل يعلم الدماغ أنه محفوظ في الجمجمة وظيفته التفكير والسيطرة على شؤون الجسم؟ هل يعرف الدماغ من حيث إنه مادة بيضاء ذلك؟ هل تحس هذه المادة البيضاء بأن عليها أن تحتاط وتسعى للمحافظة على الإنسان من مكروه أو نازلة؟

إنها مادة غافلة عن نفسها لا تعلم حتى بوجودها «والإنسان المدرك لا يشعر بوجود مخه إلا بواسطة التعليم والاستخبار» فمن أدرى الإنسان إذن بنفسه؟

إن العقل من حيث إنه مادة بيضاء لا يدري بنفسه ولا يشعر بوجوده ولا يعلم أقسامه ووظائفه ولا يعرف كل شيء عن ذاته ـ كما أسلفنا ـ وإذن فلا بد أن يكون هناك من أعلم الإنسان بوجوده وعَرَّفه بذاتِه وهو الله سبحانه ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢١]!

طائفة من أدلة المتكلمين[(١)]

وهي إلزامات منطقية وعقلية جميلة لا مفر من الإذعان لها والتسليم بها... ويجمل بي قبل أن أبدأ بذكر الأدلة أن أقدم لها مقدمة بسيطة لإمكان فهمها.

يقول المتكلمون ونقول معهم: إن هناك موجوداً ومعدوماً.

فالموجود إما واجب أو حادث.

فالواجب: هو الله وحده، ونحن نريد أن نُثبتَ وجوبَ وجوده. وسمي بـ«الواجب» لأنه لا يحتاج وجودهُ إلى سبب. بل وجوده واجبٌ. وهو السببُ في إيجاد الموجودات كلها، وهو علة العلل.

والحادث: وهو ما سوى الله تعالى من الموجودات. وسُمّيَ «حادثاً» لأنه «حدث» بعد أنْ لم يَكُنْ، وظهرَ ووُجِدَ لعلةٍ أوجدته وسببٍ أحدثه. هذا هو الموجود.

وأما **المعدوم** فهو إما أن يكون ممكناً أو مستحيلاً.

فالممكن: هو ما يمكن وجوده وحدوثه، إذا وُجِدَ السببُ أو العلة التي ترجح وجوده. فإن وجد «الممكن» فهو «حادث».

فكل ما يأتي في المستقبل وهو الآن ليس موجوداً من إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد هو مُمكنٌ قبل أن يوجد، وحادثٌ عندما يوجد.

---

(١) في رأينا أن الأدلة القرآنية هي أقوى الأدلة وأوضحها في إثبات وجود الله تعالى وإفراده بالعبادة وهي التي أشار إليها القرآن الكريم. ولن تبلغ أدلة المتكلمين مبلغ الأدلة القرآنية التي قامت على الاستدلال بالمخلوق وعجيب صنعة الكائنات على الخالق وقدرته. ومع هذا فنحن نسوق أدلة المتكلمين حتى يُلِمَّ القارئ بأدلة من جميع أنواعها القرآنية والكلامية.

فالممكن إذا كانت له علة ترجح له وجوده فوجد ، يكون هذا الموجودُ حادثاً. أي كان معدوماً فحدث.

والحادث هو ما وجد من الممكنات.

والمستحيل: وهو ما لا يمكن وجوده إطلاقاً ولا يُتصوَّرُ حدوثُه أبداً. ككون الشيء موجوداً معدوماً في آن واحد فإن هذا تناقض. وليس منه المشي على الماء والطيران في الهواء.

الدليل الكياني[(١)]

نرى في العالم حادثات وتقلبات ، حتى أن وجودنا نحن من جملة تلك الحادثات.

ـ فهذه مقدمة مبنية على الإحساس والمشاهدة ـ.

ولا بد لكل حادث علة، وكل حادث يكون ممكناً، لا مستحيلاً ولا واجباً. فلو كان مستحيلاً، لما حدث، ولو كان واجباً، لما سبقه العدم.

والممكن ، ما لا يقتضي أن يكون موجوداً ولا معدوماً ، فالعدم والوجود سيان بالنسبة إليه.

فإذا وُجِدَ ، وجد لعلةٍ تُرجِّحهُ لئلا يلزم الرجحان من غير مرجح ، وهو محال مستلزم لعدم تساوي الوجود والعدم فيما فُرض تساويهما فيه. وعدم التساوي فيما فرض فيه التساوي ، يستلزمُ خِلافَ المفروض المؤدي إلى التناقض.

---

(١) ملخص من كتاب: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، للعلامة مصطفى صبري.

فإذا كان لكل حادث علة ، فإما أن تكون العلة أيضاً حادثةً كالمعلول ، أو قديمةً واجبة.

فعلى الشق الثاني يثبت المطلوب (أي يثبت وجود علة واجبة الوجود) ، وعلى الشق الأول ـ أي أن تكون العلة أيضاً حادثة ـ يلزم أن تكون هذه العلة (المُرجِّحة للوجود) مستندةً إلى علة أخرى (أوجدتها) لأنها كسابقتها (أي حادثة تحتاج لترجيحِ وجودها إلى علة) وهكذا إلى أن تنتهي إلى علة العلل وإلا لزم التسلسل وهو محال.

وسيأتي بحثُ ذلك مفصّلاً في إبطال التسلسل.

قال الدكتور «محمد عبد الله دراز» في قانون السببية:

«أما قانون السببية فيقرر أن شيئاً (من الممكنات) «لا يحدث بنفسه من غير شيء»، لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ، «ولا يستقل بإحداث شيء ، لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو. كما أن الصفرَ لا يتولّدُ عنه عددٌ إيجابي، فلا بد له في وجوده وفي تأثيره من سبب خارجي. وهذا السبب الخارجي ، إن لم يكن موجوداً بنفسه احتاج إلى غيره. فلا مفر من الانتهاء إلى سبب ضروري الوجود يكون هو سبب الأسباب».

دليل الحدوث[1][2]

«إن كل حادث فلحدوثه سبب... والعالم حادث... فيلزم منه أنّ له سبباً».

---

(١) صنفه الإمام الغزالي في عدد من مصنفاته.

(٢) آثرنا أن نختصر شرح هذا الدليل تجنباً لما قد يثار حوله من أسئلة. ولم نُبقِ إلا الشرح المسلم به تسليماً كاملاً. فمن أراد الشرح كاملاً فليراجعه في مصنفات الإمام الغزالي.

ونبدأ بشرح الدليل فنقول:

(إن كل حادث له سبب) وهذا يعرف بالضرورة، وهو من أوليات العقل المُسَلَّمِ بها. وقد شرحنا ذلك في الدليل الكياني. فالحادث، هو ما كان معدوماً ثم صار موجوداً. والمعدوم، إما أن يكون مستحيلاً أو ممكناً. كما أسلفنا.

فالحادث كان قبل أن يوجد ممكناً وليس مستحيلاً؛ لأنه لو كان مستحيلاً لما وجد. ونعني بالممكن ـ كما قلنا ـ ما يجوز أن يوجد ويجوز أن لا يوجد. فهو لم يكن موجوداً لعدم وجود مُرجّح لوجوده حتى يتبدل العدم بالوجود. فإن لم يوجد المرجح ـ أي السبب ـ لم يوجد الحادث.

والحاصل أن المعدومَ المستمرَّ العَدم، لا يتبدلُ عَدَمُه بالوجود ما لم يتحقق أمر من الأمور يرجح له جانب الوجود على استمرار العدم.

(وكل ما في العالم حادث) وُجد بعد أنْ كان معدوماً كالبشر والنبات والحيوان فلا بد إذن أن يكون هناك سبب رَجَّحَ وجود هذه الموجودات ونقلها من حالة العدم إلى حالة الوجود. وهذا السبب الموجد إما أن يفتقر وجوده إلى غيره أو لا يفتقر. فإن كان الأول نظرنا إلى ذلك الموجد فإن افتقر إلى موجد أيضاً نظرنا إلى موجده وهكذا حتى نصلَ إلى سببٍ لا يفتقر وجودُه إلى ما سواه، وبه يكون حدوثُ جميع الحوادث.

دليل الخلق أو دليل المحرك[1]

وخلاصته: أن الموجودات لا بدَّ لها من مُوجدٍ؛ لأن كل موجود

---

(١) استدل به الفيلسوف أرسطو.

يتوقف وجوده على غيره وهكذا إلى أن ينتهي التسلسل إلى سبب أوجدها وليس كبعضها[١] وليس له سببٌ أوجده.

ويسمى أيضاً هذا البرهان بدليل الحركة. ومعنى الحركة هنا عام لا يختص بشيء، ومنها حركةُ الإيجاد والخلق. وخلاصته: أن كل متحركٍ لا بد له من مُحَرِّكٍ، وهذا المحرك يستمد حركته من غيره إلى أن ينتهي التسلسل إلى محرك واحد لا تجوز عليه الحركة.

إبطال التسلسل[٢]

ونعني بإبطال التسلسل إبطال تسلسل العلل. فإنه من المنطق ومن المعقول أن تستند الموجودات إلى علة واحدة أوجدتها، ليست محتاجة إلى علة توجدها «أما إذا كان كل ما يستند بعضه إلى بعض في الوجود محتاجاً إلى علة موجدة، فالحاجة إلى العلة لا تزال باقية غير مقضية وتكون سلاسل المعلولات وعللها الممتدة إلى جانبها في الماضي مستندة آحادُها المتأخرة على آحادها المتقدمة ضرباً من الخيال».

١ ـ إنَّ اللانهاية[٣] معناها عدم البداية. إذن فكيف، ومن أين، ومتى ابتدأت سلسلة الوجود؟

٢ ـ لو ثبت أنه لا نهاية لسلسلة الوجود من الجانب القَبلي لكان قد انقضى ما لا نهاية له من الجانب القديم ووقع الفراغ منه وانتهى. فيلزم

---

(١) إذ لو كان كبعضها لاحتاج إلى مُوجدٍ مثلها.

(٢) راجع ما كتبه شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، وما صنفه الإمام الغزالي في رسالة «الاقتصاد في الاعتقاد» و«إحياء علوم الدين».

(٣) من الجانب القبلي.

من ذلك أن يقال قد تَناهى ما لا يتناهى ، وانقضى ما لا ينقضي ، وهو محالٌ إذ كيف يتناهى ما لا ينتهي؟

٣ ـ لو لم تنته السلسلة لكان قبلَ كل حادثٍ حوادثُ لا أولَ لها . ولو لم تنقضِ تلك الحوادث بجملتها لا تنتهي النوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال ، وانقضاء ما لا نهايةَ له محال .

٤ ـ لا وجود لحركات غير متناهية ، إذ إن كل حركة من الحركات لا تحدث إلا بعد انتهاء الحركة السابقة لها . فحدوثها مشروط بانتهاء ما قبلها . وكل حركة من القديم إلى الأبد لا تحدث إلا بعد انقضاء سابقتها وانتهائها .

إذن فجميع الحركات مشروط حدوثها ومعلق بانتهاء ما قبلها وانقضائها . فهي لا توجد إن لم ينقضِ ما قبلها . وعلى هذا فستبقى الحركات معلقة لا تحدث طالما بقيت سلسلة التعليقات لا تنتهي بل ستبقى موقوفة على ما قبلها ، وما قبلها يبقى موقوفاً على ما قبله ، ولا تبدأ الحركات فعلاً إلا إذا انتهت سلسلة التعليقات ، وعلى هذا فإن للحركة[1] بداية .

٥ ـ إن الحوادث لا بد أن تكون متناهية . إذ لو وجدت حوادث لا متناهية فهي إما أن يكون عددها زوجياً أو فردياً ، أو لا زوجياً ولا فردياً ، وإما زوجياً وفردياً معاً؛ لأن كل عدد ينقسم إلى قسمين متساويين إذا كان زوجياً ، ولا ينقسم إلى قسمين متساويين إذا كان فردياً . وكل عدد مركب من إضافات آحاد إليه ، فهو إما ينقسم إلى قسمين متساويين أو لا ينقسم . وعدد الحوادث يضاف إليه في كل مرة حادث إلى ما سبقه من

(١) معنى الحركة هنا عام .

الحوادث. فهو إما ينقسم إلى قسمين متساويين أو لا ينقسم، وعلى كل فهو إما زوجي أو فردي.

وباطل أن يكون عدد الحوادث زوجياً؛ لأن العدد الزوجي يصبح فردياً بإضافة واحد إليه. فإذا انضاف إليه واحد صار فردياً. فكيف إذن يحتاج اللانهاية إلى واحد وهو لا يحتاج إلى شيء؟

كما أنه باطل أن يكون عدد الحوادث فردياً، لأن الوتر يصبح زوجياً بإضافة واحد إليه. وهو يبقى فردياً لأنه ينقصه ذلك الواحد. فكيف يعوز العدد الذي لا يتناهى واحد؟

وعلى هذا، فعدد الحوادث إما أن يكون زوجياً أو فردياً. وإذا كان كذلك، فلا بد أن يتناهى لأنه يحتاج إلى واحد.

٦ ـ نفرض أن هناك سلسلة متناهية، ولتكن من عشرة مثلاً. فوجود العاشرة يستند إلى التاسعة، والتاسعة إلى الثامنة، وهكذا إلى أن تصل سلسلة الاستناد إلى العلة الأولى وتنتهي فيها، ثم نرى أن وجودها لا يستند إلى علة، أي أنها غير موجودة لأنها محتاجة إلى الاستناد ولعدم كونها واجبة الوجود. وهكذا نستمر في الرجوع من الماضي إلى الحال حتى تنتهي إلى العاشرة. فإذا لم توجد الأولى لم توجد الثانية، وإذا لم توجد الثانية لم تكن الثالثة، وهكذا نجد أن العاشرة غير موجودة لعدم استنادها إلى علة. بينما نحن فرضنا وجودها فهذا خُلف.

وزِدْ من السلسلة ما شئتَ فستجد أنها إن لم تنته إلى علة موجدة واحدة لا تحتاج إلى موجد، فستجد أنها غير موجودة. وها نحن نرى سلسلة الوجود حقيقة حاضرة فلا بد إذن أن تنتهي إلى علة لا تحتاج إلى موجد، فالعلة المطلوبة إذن موجودة حتماً.

٧ ـ نوضح هذا المقام بمثل: لو كتبنا على ورقة صفراً فلا شك في

احتياج هذا الصفر لتكون له قيمة عددية إلى أن يكون بجانبه من اليسار رقمٌ أقلُّه واحد وأكثره تسعة. ولكنا لا نكتب هذا الرقم ، بل نكتب صفراً. فإن كتبنا في إحدى المراحل من مرحلة المئات أو الألوف الرقم المنتظر اكتسبت منه الأصفار المكتوبة قبله قيمتها العددية ، فكأن هذا الرقم يفيض بالحياة على تلك الأصفار الميتة. أما إذا لم نكتب الرقم المقوّم للأصفار أبداً بل استمررنا في وضع صفر بعد صفر فلا تحصل لتلك الأصفار من زيادة إكثارها أي قيمةٍ ويذهب كلها هباء ، ولا ينفعها في تقويمها أن تكون أعدادها غير متناهية. وكذلك شأن الحوادث، فكل حادث يعتمد في وجوده على علة توجده. فهو بمثابة الصفر لا تكون له قيمة ذاتية لاحتياجه إلى إسناد يفيض عليه بالوجود. وإسناد الحادث إلى حادث آخر كإسناد الصفر إلى الصفر. وما لم تنته الحادثات إلى علة واجبة لها قيمة ذاتية لا يحتاج وجودها إلى سبب ، فليست هناك قيمة أو وجود حقيقي للحوادث ، شأن الأصفار.

ولا ينفع الحادثات أن تكون غير متناهية ، كما لا ينفع الأصفار أن تكون كذلك.

فلا بد إذن أن تكون هناك علة لا تحتاج إلى موجد ، لها قيمة ذاتية (كالرقم) تفيض بالوجود على الكائنات ، كما يفيض الرقم بالحياة على الأصفار.

٨ ـ لا وجود لسلسلة غير متناهية. إذ لو كانت موجودة ، فإما أن تتكون من سلاسل متناهية فيلزم أن تكون هي أيضاً متناهية؛ لأنّ المؤلّفَ من المتناهيات متناهٍ ، ولا يتولد غير المتناهي إلى الأبد من انضمام المتناهي إلى المتناهي.

وإمّا أن تكون من سلاسل غير متناهية ، فيتوقف وجود الكل

اللامتناهي على وجود الأجزاء اللامتناهية. ويلزم من تقدم وجود الموقوف عليه على وجود الموقوف ، تقدم وجود اللامتناهي على نفسه. ولزومُ تقدم الشيء على نفسه باطل.

٩ ـ إنه إن لم يكن معلول من غير وجود علة ، فلا معلول ولا علة ولا سلسلة مؤلفة من المعلولات؛ لأن وجود المعلول الأخير معلق بوجود علته ، ووجود علته معلق بوجود علتها، وهكذا إلى ما لا نهاية له. فليس لأي جزء من أجزاء السلسلة وجود تقرر ، بل وجود معلَّقٌ بوجود ما قبله ، ووجود ما قبله معلق بوجود ما قبله ، بمعنى أنه موجود إن كان ما قبله موجوداً ، وما قبله موجود إن كان ما قبله موجوداً ، من غير أن يكون وجود هذه الأشياء المتسلسلة إلا بعد انتهاء سلسلة التعليقات. وحيث لا تنتهي السلسلة في الجانب القبلي ـ الذي هو جانب المبدأ ـ إلى ما له وجود منفرد غير محتاج إلى تعليقه بوجود غيره ، بل تستمر من تعليق إلى تعليق ، كانت السلسلة عبارة عن تعليقات مجردة ، يتأخر الحكم بوجود معلقاتها إلى وصول الذهن إلى نهاية السلسلة التي لا نهاية لها.

١٠ ـ نقول: لو كان لزيد أمٌّ ولدتهُ ، كان زيد موجوداً ، فوجوده يتوقف على وجود أمه. ووجود أمه يتوقف على وجود أُمِّ أمهِ. وهكذا إلى سلسلةِ أمهاتٍ لا تنتهي. وكذلك الآباء. فما هي موجودات بل موقوفات يتوقف الحكمُ بوجودها على وجودِ موقوفاتٍ مثلها. فهذا موجود إنْ وُجِدَ ما قبله.

وهكذا جميع أجزاء السلسلة لا وجود لها مقطوعاً ، بل مشروطاً بوجود آخر قبله ، وتحققه (في الواقع) يتوقف على انتهاء السلسلة المشروطة بعدم الانتهاء.

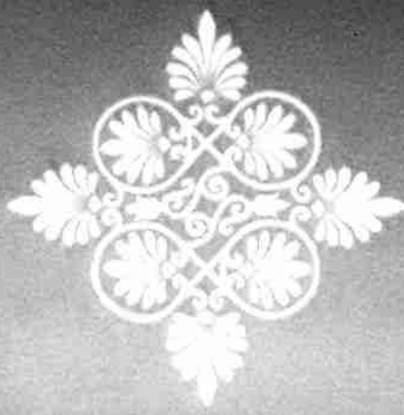
١١ ـ إنَّ غير المتناهي لزمه أن لا يكون لزيادة شيء فيه، أو نقص شيء

عنه أي تأثير في كميته. فلا يزداد بالزيادة ولا ينقص بالنقص. ويتساوى الحالان عليه، وهو تناقض لعدم كون الزيادة زيادة والنقص نقصاً.

١٢ - لو وجدت أمور غير متناهية فعلاً لأخذنا شيئاً منها، ثم قارنا الباقي بالمجموع المأخوذ منه. فإن تساويا كان الجزء مساوياً للكل والناقص للزائد وكلاهما محال.

وإن نقص الباقي عن المجموع لزم تناهي الناقص وهو ظاهر، وتناهي الزائد لكونه زائداً على الناقص بمقدارٍ مأخوذ متناهٍ. والزائدُ على المتناهي بمقدارٍ متناهٍ متناه.

* * *



بيان موجز

عن ذات الله تعالى وصفاته[1][2]

١ - قِدمه: إن الله قديم لم يزل، أزلي ليس لوجوده أول، بل هو أول كل شيء ومبدؤه، وقبل كل ميت وحي. ليس له سببٌ أوجده، ولا ذات خلقته، غير مسبوقٍ بعدم.

---

(١) ذكرها الإمام الغزالي بتوسع في رسالته «الاقتصاد في الاعتقاد».

(٢) ذات الله سبحانه وتعالى لا يشبهها شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى]. ولا نعرف كُنْه ذات الله تعالى لأن العقل عاجز عن معرفة كنه الذات الإلهية «فكلُّ ما خطرَ ببالك فاللهُ على خلافِ ذلك». وعجزنا عن معرفة كنه الذات لا يتناقض أبداً مع إيماننا بوجود الذات لأن الإيمان بوجود الشيء لا يتوقف على معرفة كنهه، فالصبي يوقنُ بوجود «الراديو» لأنه يراه ولكن لا يعرف كنهه، والعالم يوقنُ بوجود الكهرباء ولا يعرف كنهها، والإنسان يوقن بوجود روحه ولا يعرف كنهها. فإذا كان معرفة كنه الأشياء الحادثة خارج حدود العقل البشري فمعرفةُ كنهِ ذاتِ الله أولى أن تكون خارج قدرة العقل البشري، فذات الله تعالى لا تشبه الذوات لأن المشابهة تقع بين المخلوقات لا بين الخالق والمخلوق، وكما أن ذاته تعالى لا يشبهها شيء فصفاته لا يشبهها شيء، وكذا أفعاله، ولهذا يقال: إن الله تعالى لا يُشبهُهُ شيءٌ لا في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ ولا في أفعاله.

ونحن نؤمن بأن الله تعالى له الكمالُ المطلق، إذ يستحيل عليه النقص، ويستحيل عليه صفات العجز. ولما كان الله سبحانه وتعالى أعرفَ بصفاتِهِ من خلقه كان واجباً على العقل السليم أن لا يَصِفَ رَبَّهُ إلا بما وصفَ به نفسه، على أن يعرف أن صفاته تعالى لا تُشبهها صفاتُ المخلوقين بل هي صفات تليق بذاته تعالى، فمن صفاته أنه

وكذلك السبب الآخر افتقر إلى محدث، ويتسلسل إما إلى غير نهاية وهو محال ، وإما أن ينتهي إلى قديم لا محالة يقف عنده وهو الذي نطلبه.

٢ ـ دوامه وأبديته: إنّ صانع العالم مع كونه موجوداً لم يزل ، فهو باقٍ لا يزال ؛ لأن ما ثبت وجوبه وقِدَمهُ استحال عَدَمهُ ، ولأنه لو انعدم لافتقر إلى سبب. إذ كما افتقر تبدل العدم بالوجود إلى مرجح على العدم ، فكذلك يفتقر تبدل الوجود بالعدم إلى مرجح للعدم على الوجود. وباطل أن يقال إنه ينعدم لانعدام شرط وجوده؛ فإن الشرط إن كان حادثاً استحال بأن يكون وجود القديم مشروطاً بحادث ، وإن كان قديماً فهو واجب وجوده كذلك فلا يتصور عدمه ، وليس هناك من مرجح لا يحتاج إلى غيره إلا الله تعالى.

٣ ـ قدرته: إن مُحدِثَ العالم وصانعَ الكون قادر ؛ لأن العالم فِعلٌ مُحكمٌ متقن مشتمل على أنواع العجائب والآيات ، وذلك يدل على القدرة. إذ كل فعل محكم ، صادر من فاعل قادر ، والعالم فعل محكم ، فهو إذن صادر من فاعل قادر.

هذا الأصل مدرك بضرورة العقل وبداهة الحس ، إذ لو لم يكن العالم صادراً من فاعل قادر لكان قديماً مع الذات الإلهية. ولما كان العالم حادثاً ليس بقديم ، دل على أنّه مبدعه قادر وقد أحدثه بقدرته.

= هو الأولُ الدائم الحي القيوم العليم القدير السميع البصير الخالق المحيي المميت . . إلى آخر الصفات التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ، ولا يجوز لنا أن نحرف معاني الصفات بحجة التأويل وتنزيه الله تعالى ، فنحن نؤمن بانتفاء المشابهة بينه تعالى وبين ما سواه ، وأن إثبات هذه الصفات للرب عز وجل إنما يكون على ما يليق به وهو أعرفُ من غيره بما يليقُ به. ولو كان فيما وصف به نفسه أي نقصٍ له لما وصف به نفسه ، ولو كان ظاهر ما وصف به نفسه يُوهِمُ التنقيصَ به تعالى لما ذكره في القرآن الكريم. ع. ز.

إذ لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر إلى سبب آخر مُحْدِثٍ له ، . . . إذ إن الفعل الصادر من مُحدِثِ العالم لا يخلو إمَّا أن يصدرَ عنه لذاته ، أي أن طبيعة وجوده تُحدثه بغير إرادة منه ، كما أن ضوء الشمس يصدر عنها طبيعياً وبلا إرادة منها ، فحيثما وجدت الشمس كان الضوء معها ، أو يصدر الفعل عنه لصفة زائدة يتحكم فيها وهي صفة القدرة .

وباطلٌ أن يقال : صدر عنه لذاته . إذ لو كان كذلك لكان الفعل قديماً مع الذات .

فدلَّ على أنه صدر لزائد على ذاته . والصفة الزائدة هي صفة القدرة التي كان العالم بها حادثاً .

٤ ـ العلم : إن هذا العالَم مُتقَنُ الصنع مُحكَمُ الفِعل ، وذلك يدل على قدرة الصانع كما سبق بيانه، ومن كان قادراً وكان عمله متقناً وفعله محكماً مرتباً كان عالماً بالضرورة. فإن من رأى سطوراً منظومة وخطاً جميلاً متسقاً يصدر من كاتب، ثم استراب في كونه عالماً بصنعة الكتابة كان ضالاً في استرابته ، فدل على أنه سبحانه قادر عالم . ومَنْ عَلِمَ غيره فهو بذاته وصفاته أعلم . إذ يجب ضرورة أن يكون عالماً بذاته وصفاته من كان عالماً بغيره .

وإذن فقد ثبت أنه عالم بغيره وذاته .

٥ ـ الحياة : نقول إن الله سبحانه حي ، وذلك معلوم بالضرورة ، فإنّ كونه تعالى عالماً قادراً مما يدل على أنّه حيٌّ قطعاً . وما الحيُّ إلا ما يشعر بنفسه ويعلم ذاتَهُ وغيره . والله سبحانه عالم بجميع المعلومات قادر على كل شيء فكيف لا يكون حياً .

تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

التدين فطرة[(١)]

إن الإنسانَ مجمعُ غرائز عدة كغريزةِ الجنس والغضب والخوف وغيرها. وكل غريزة تتحرك وتثور بدوافع مخصوصة. وهو في الحالة الاعتيادية لا يظهر عليه أي أثر للغريزة، حتى إذا وجدت الأسباب لإثارتها وحركتها تتحرك أو تثور فتراه غاضباً أو خائفاً أو مدافعاً عن ذاته.

إن الإنسان الهادئ الساكن الذي لا يبدو أن في باطنه شيئاً مخفياً إذا أدنيت منه صورة حسنة ومنظراً جميلاً يستهويه ترى غريزته الجنسية التي كانت مستورة عنك وليس هناك أي علامة على وجودها تتحرك ويتبدى أثرها عليه.

وإذا نلتَ منه بكلمة أحس أن فيها أي إهانة ترى غريزة الغضب التي لم يكن لها أي أثر عليه تحركت فثارت أعصابه وتغير مظهره... إنهما غريزتان موجودتان ولكنهما مستورتان ظهرتا وتحرَّكتا عندما وُجِدَ الدافعُ لهما على الحركة. وكذلك شأن باقي الغرائز.

---

(١) إن الإنسان مفطور على الإقرار بوجود الله تعالى والاعتراف بربوبيته والالتجاء إليه، إلا أن هذه الفطرة التي خلقه الله عليها قد يصيبها المسخ وتسترها المكابرة ويحجبها الجحود ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴿١٤﴾﴾ [النمل]. وحتى الكفار كانوا يعتقدون بوجود الله وربوبيته ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان] إلا أن الإنسان قد يتمادى في الضلالة ويتبع هواه وتأسره مكابرة الحق فيختفي نور الفطرة ويخفت صوتها حتى لا يكاد يبين أو يظهر فتكون فطرته كالجمرة التي عليها أكوام من الرماد، فإذا ما أصاب مثل هذا الإنسان ضُرٌّ أو حلت به نائبة وتقطعت به الأسباب ولم يجد له ملجأ ولا منجى وضاقت به السبيل ويئس من حولِهِ وقوته وقطع تلفته إلى من يظن فيهم النصرة والعون زالت تلك الأكوام من الرماد التي حجبت نور الفطرة وأَخفَتَتْ صوتها فإذا بلسانه ينطق يا رب يا رب ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء]. ع. ز.

فمتى تتحرك غريزة التدين ، ومتى تظهر؟

إنه متى ما نزل بالإنسان مكروه يعجز عن دفعه ، أو مرض لا حيلة له في الخلاص ولا أمل في النجاة منه وانقطع رجاؤه من الأطباء والمداوين ، عندما لا يرى منجداً حقيقياً فعند ذلك يظهر صوت الفطرة وتوحيدها . ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة فيثبت فطرة التدين عند بني الإنسان فيقول :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس] .

كما يقول سبحانه في آية أخرى مدللاً على هذه الحقيقة :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء] .

ولا يقتصر هذا الأمر على المؤمنين ، وإنما هو عام بين بني الإنسان . فحتى الإنسان الملحد إذا وقع في مأزق حرج يُنسيه منطقه الكَسْبي يظهر في نفسه حقيقة المستور .

فهذا «ستالين» مثلاً حين أنهكه المرض وانقطع أمله في الشفاء وأعلن الأطباء عجزهم عن مداواته فعند ذاك تحركت غريزته وانكشفت فطرته على سجيتها فبدأ يطلب من العلماء الروحانيين في العالم أن يدعوا له بالشفاء ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس] .

وليس أدل على عمق غريزة التدين من أنّه لا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات من الدين . فإنّك أنّى نظرتَ في أعماق التاريخ وفي بطون الماضي السحيق وتفحصت أي مجتمع من المجتمعات تر طابع التدين واضحاً على أفراده وجماعاته ، أياً كان نوع الدين .

إن هذا الأمر وحده لَيدلُّ دلالةً واضحة على غريزة التدين وعمقها. بل الأمر أبعد من ذلك كما يقول الفيلسوف «آرنست رينان» في كتابه «تاريخ الأديان» إذ يقول:

«من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها. ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعة. ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى. بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية».

حقاً! قد يأتي زمن ـ وقد أتى ـ على مجتمع تنحدر فيه الحضارة إلى الدركات السفلى وتبطل الحرية ويسود الجهل والفوضى ويركد العلم وتبطل الصناعات ويضعف استعمال القوة العقلية، لكنه ليس من الممكن أن ينمحي التدين أو يتلاشى ويضمحل. إنها لدلالة كبيرة على عمق فطرة التدين عند بني الإنسان.

يقول هنري برجسون: «لقد وُجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علومٍ وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة».

ويقول سالومون رنياك: «ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب، بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى شيء منها أبداً، ذلك لأنه سيبقى في الكون دائماً أسرار ومجاهيل، ولأن العلم لن يحقق أبداً مهمته على وجه الكمال».

ويقول الدكتور (ماكس نوردوه) عن الشعور الديني:

«هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين، كما يجده أعلى الناس تفكيراً، وأعظمهم حدساً... وستبقى الديانات ما بقيت

الإنسانية ، وستتطور بتطورها ، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة».

وكتب بارتيلمي سانت هيلير: «هذا اللغز العظيم الذي يَستحثُّ عقولنا: ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاءا؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدءا؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟. . . هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود. . ؟ هذه الأسئلة. . . لا توجد أمة ، ولا شعب ، ولا مجتمع ، إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة. . . ».

ويقول معجم (لاروس) للقرن العشرين: «إنّ الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية. . . وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية».

وقال الدكتور هنري لنك في كتابه (الطريق إلى السعادة):

«ويبدو سواء من الوجهة النفسية أو من أيِّ وجهة أخرى يستسيغها العقل ، أنّ الإنسان خُلق وهو مجبول على الاعتقاد في عقيدة ما ، والتصرف حسبما يؤمن به. فالإلحاد مرض عقلي ، والإيمان بالخرافات أفضل من عدم الإيمان بشيء».

إنها غريزة الإنسان وفطرة الله التي فطر الناس عليها. فمن يستطيع أن يمحو الغريزة ويبدل الفطرة؟!

من الممكن أن تأتي جماعة من المستبدين تسيطر على الوضع وتحسب أنها استطاعت أن تطمس على هذا الجانب المشرق من الفطرة وتغتر بذلك ، ولكن إلى حين ، وإلى أمدٍ مهما طال فهو قصير.

المَبْحَثُ الثَّانِي

الإيمان باليوم الآخر

تعتبر هذه العقيدة امتداداً لسابقتها ـ عقيدة الإيمان بالله ـ والأكثرية من الناس تكتفي بإثبات وجود الله لإقرار هذه العقيدة ؛ لأنه متى ثبت وجود الله ، اقتضى أن يكون هناك يوم آخر ينتصف فيه المظلومون من الظالمين ويحاسب كل إنسان على عمله. فإنه من غير المعقول أن يذهب الظالم ناجياً مما اقترفت يداه وأن تذهب حقوق المظلومين هدراً ، وليس في هذه الدنيا من أدان أولئك وجازاهم وأرجع لهؤلاء حقوقهم. إنه من غير المعقول أن تُنتهكَ الحُرمات وتداس الكرامات ويجني المجرمون ويعبث العابثون ، وتُبادَ جماعات بلا إثم اقترفوه وتهلك أقوام بسبب ظالم باغ وبعد ذلك كله لا يرجعُ إلى هؤلاء حقهم ولا يلقى أولئك جزاءهم. ومع ذلك فإن هناك صنفاً آخر من الناس أشد إنكاراً لقضية البعث والنشور منه لحقيقةِ الله سبحانه ، ويعتبرها بدعاً بعد أن يكون الناس رهائن قبورهم أن ينهضوا. وهذا الصنف ليست بالحديثةِ أفكارُه ، وإنما هي أفكار ناس قدامى. وقد كان كفار قريش من هذا الصنف.

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية].

وبلغ العجب من أمر البعث أن يقولوا لبعضهم ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ].

وكان نتيجة لهذا العجب والاستغراب أن يأتي أحدهم وبيده عَظْمٌ بالٍ

فيفتّتُه أمام رسول الله ﷺ ويُذَرِّيه في الهواء قائلاً: أَتزعمُ أن ربك يستطيع أن يحيي هذه العظام البالية؟ فيجيئه الرد من السماء ساخراً من هذا الجاحد الجاهل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

وبلغ الإنكار من هؤلاء مبلغاً لا يتصوره أحد، وجاؤوا بحجة يدعمون بها إنكارهم. فما عسى أن تكون هذه الحجة؟ اسمعها يحكيها الله سبحانه:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية] لقد سماها الله (حجة) تَجوُّزاً أو باعتبار قائليها طرفاً آخر يدلي برأيه أياً كان هذا الرأي.

يريد هؤلاء أن يقوم الناس من قبورهم يخبرونهم عن الآخرة وعن حقيقة النشور.

ها! ها! ملء فمي من هذه العقول الكليلة والقلوب العمي! ثم... بلغت هذه الحجة مجتمعنا الحاضر، وإذا بهم يُرَدِّدونها شأن أولئك الأوائل: ائتوا بآبائنا... فهل تصدّق؟!

لقد كنتُ أظنُّ أن البشر مهما انحطت مداركه وبلغته جهالته لا يبلغ هذا المبلغ من السخف، إنه ما دمنا لم نَعُدْ نرى آباءنا الأموات فليس إذن هناك يوم آخر.

إنّ الحياة الأخرى ـ يا هؤلاء ـ بمثابةِ ولادةٍ جديدة، وطور آخر من أطوار الحياة، فكما أن الطفل الذي لا يزال جنيناً في الرحم يشعر بأن محيطه الضيق هو العالم الواسع، ولا يصدق بأن هناك عالماً أوسع من عالمه يختلف عنه في كل شيء، وفي كل مظهر من مظاهره، وحتى في أسلوب حياته ومعيشته، كذلك هؤلاء الناس، لا يصدقون بأن هناك

عالماً أوسع من هذا العالم يختلف عنه في كل مظهر من مظاهره. وما كان حجتهم إلاّ حجة الجنين ، أنه ما دام لم يرجعْ أحدٌ من الناس إلى بطن أمه مرة ثانية ويخبر الجنين بأن العالَمَ الذي يستقبله هو خيرٌ من عالمهِ الذي يعيشُ فيه ، وأن الخيرَ كل الخير في أن يخرج إلى ذلك العالم ، ما دام لم يكن ذاك ، فَليُنكر الجنينُ إذن وجودَ العالَمِ الكبير ، وليتشاءم من خروجه من بطن أمه وليستقبل الدنيا بالبكاء . . . وكذلك هم ، ما دام أنه لم يعد أحد من قبره إلى الدنيا يخبرهم بحقيقة الأمر فلينكروا إذن كما ينكر الجنين!

إن الحشرة التي تعودت الحياة الدودية في الأرض تسبت وتلف على نفسها شرنقة أشبه ما تكون بالقبر ثم تخرج مكسوة بالأجنحة وقد صارت حياتها أرفع مما كانت عليه ، وعالمها أوسع وقواها أكبر. إلاّ أنه ما لم تعد حشرة طائرة إلى حيث كانت عليه قبل الشرنقة وتخبر أخواتها اللاتي لم يَسْبتنَ بَعدُ بأن الخير كل الخير في أن يعشن في محيط الشرنقة الضيق ليتمكنَّ من المعيشة في عالم أوسع وحياة أهنأ فلينكرن حقيقة هذا الأمر.

هذا أيها الناس إنكارُ الأَجِنَّةِ لا إنكارُ الناس الكبار ، وإنكار الحشرات لا إنكار العقلاء من البشر . . . فهل ترضون أن تكونوا كذلك؟

لقد جعل الله مثلاً مضروباً للموت والنشور يستقبله الناس كل يوم حتى أصبح من مألوفاتهم ومن لوازم حياتهم اليومية الرتيبة. ذلك هو النوم. . . يفقد الناس فيه شعورهم ويجهلون ذواتهم حتى أنهم لا يبصرون بأعينهم ولا يسمعون بآذانهم. . حياة أشبه ما تكون بالموت. حتى إذا أصبح الصباح رأيتهم وقد أُرجعَ إليهم شعورهم ، وعادت إليهم معرفتهم بأنفسهم ، وقاموا من مضاجعهم كما يقوم الموتى من قبورهم. . . أين كان الشعور ، وأين كانت الذوات ، ومَنْ أرجعها إليهم؟ من أرجع إليهم شعورهم وعَرَّفهم بذواتهم وهم لا يدَ لهم في ذلك؟

كذلك لعمري شأنُ الموت. ولقد صدق رسول الله ﷺ حين قال «النومُ أخو الموت . . . » وحين قال أيضاً:

«والله لَتمُوتُنَّ كما تَنامون ، ولَتُبعثنَّ كما تستيقظون ، ولَتُجزَوُنَّ بما كنتم تعملون ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً». أو كما قال.

وقد أوضح الله سبحانه في محكم آياته هذا الأمر قائلاً:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر].

إلا أننا مع ذلك سنقرر أدلتنا تقريراً موضوعياً ونسير في البحث كما سرنا في تقرير الحقيقة السابقة وسنتبع في إثباتها طريقين:

١ ـ إثبات وجود الروح.

٢ ـ خلودها والحياة الأخرى أو ما يسمى بالحياة بعد الموت.

ولن نكتفي لإثبات وجود الروح بالأدلة العقلية ، بل سَنُتْبعُ ما نقولُ أدلةً شرعية ما وَسِعنا ذاك ليكونَ كلامنا أقربَ إلى الحق والصدق منه إلى الحدس والظن ويكون أقرب إلى العقيدة منه إلى الرأي واتباع الهوى. وليرتاح له المؤمن وغيره وتطمئن إليه القلوب وتسكن له الأفئدة. ونسأله سبحانه أن يجنبنا مواطن الزلل إنه سميع مجيب.

الأصل الأول

إثبات وجود الروح

قبل الكلام عن إثبات وجود الروح في الإنسان يجدر بنا الكلام في إثبات وجود عالَمٍ غيرِ عالمنا المادي هذا ولا يخضع لقوانينه ومقاييسه

ويمكن تسميته بالعالم الروحي مثلاً. فإذا ثبت مثل هذا العالم كان الإيمان بوجود الروح في الإنسان أمراً سهلاً وميسوراً.

إثبات وجود العالم الروحي
خوارق العادات

هذه الأعمال المدهشة المحيرة للعقل كيف يُعلِّلها الماديون؟

رجل يتعرى من ملابسه أمام ملأ من الناس إلا من لباس يستر عورته ويدخل حربة غليظة في بطنه حتى تَخرجَ من ظهرهِ ويتقدمُ مَنْ شاء لإخراجها بيده. وقد شاهدنا ذلك مراراً حتى صار عندنا من المألوف. وآخر يضرب رأسه في الحائط حتى ينهدم ويحدث فجوة فيه فيضطر صاحب الدار لإصلاحه. وعندنا من يدخل السيف في بطنه حتى يخرج من ظهره ولا يصاب كل هؤلاء بأي أذى.

وقد قَدِمتْ هيئة من كبار الأطباء لمشاهدة هذه الغرائب في بلدنا فكان مما حدث أن أدخل أحد المريدين (حربة) في صفحة عنقه حتى خرجت من الجانب الآخر. وما إن بدأ الدكتور الإنجليزي الجنسية يتفحصها بيده ويحرك الحربة يميناً وشمالاً حتى فجأته الحقيقة التي لا مرية فيها ووقع مغشياً عليه. وهذه الحادثة مشهورة عندنا يعرفها كل أحد.

وهناك من يمشي على النار وقد ذكرت هذا النبأ كثير من الصحف والمجلات. وقد دُعي أحد هؤلاء إلى لندن من قبل لجنة طبية وفُحصت قدمه أدق الفحوص وغُسلت بأنواع المحاليل وأُوقدت له نار من فحم القير فدخلها رابط الجأش ومشى فيها ذاهباً آيباً.

وقد ذكرت حادثة شبيهة بسابقتها عن جماعة إسلامية دعيت إلى

باريس من قبل الأستاذ الطبيعي الكبير (ألفرد رسل ولاس) لإظهار بعض الخوارق التي اشتهرت عنهم ، على أن يخضعوا في عملهم لكل ضروب التمحيص التي تفرض عليهم ، فقبلوا «ورأى الباحثون أعضاء المؤتمر أن يستعينوا بواحد من الذين لهم خاصية رؤية السيالات الروحية بأبصارهم وهم أيقاظ ، ليروا ما يحدث من شأنها في أثناء ظهور هذه الخوارق وهذه خاصية معروفة توجد لدى بعض الناس بدون كَسْبٍ فيرون بواسطتها الإشعاعات الجسدية ، والسيالات الروحية بدون أقل مشقة. فكان ما أظهره هؤلاء مُحَيِّراً لعقول أعضاء المؤتمر ، لعدم استطاعتهم تعليله بالعلل الطبيعية ـ وقد قاموا بخوارق شبيهة بالتي ذكرناها آنفاً تقريباً ـ وقد سأل المؤتمر الرجلَ الذي استعانوا به على رؤية السيالات الروحية عما شاهده أثناء التجارب. فأخبرهم بأنه رأى عند جلوس الثلاثة هؤلاء ناقوساً كبيراً من قوى روحانية شملهم في جوفه. وفصلهم عن الجماعة المحيطة بهم. قال الرجل «وكان ذلك الناقوس من قمته يشبه البلور الناصع الشفافية ويأخذ في العتامة شيئاً فشيئاً كلما قرب من الأرض ، وأن الناقوس كان شاملاً لهم مدةَ أنْ كانوا في حالة سكون وخشوع. ولكن لما سطع دخان البخور تحول هذا الناقوس إلى قفص يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه متراً ونصف متر ، وطوله أربعة أمتار. وكان هذا القفص يفصلهم عن المحيطين بهم»(١).

وذكر عن رجال التيبت ما لا يكاد يصدق. فقد ذكر «الكسندر كانن» في رسالته (في عالم الطيف) ص ٥٦ :

ومن أعجب مشاهداتي رأيتهم يبددون الغيوم من السماء بينما الأنواء الجوية تنبئ عكس ذلك. ويوجد في بلاد التيبت شيوخ يدخلون في حالة

---

(١) لماذا أنا مسلم ، عبد الرحمن العيسوي.

غيبوية ثم يصعدون إلى الجو ويبددون الغيوم. ولقد قام بهذا العمل امرأتان كانت إحداهما روسية والأخرى شرقية وقد قاما بعمليهما بدون علم إحداهما بالأخرى».

وهناك من الخوارق على غير هذا الشأن ، فقد ذكر الأستاذ ألبرت دروث الفرنسي في كتابه (استخراج الحس الإنساني) نقلاً عن الأستاذ لومبروزو العالم الإيطالي الشهير واضع علم النفس الجنائي أنه كان شديد الإنكار للمذهب الروحاني. واقترح عليه أن يمحص حوادث تحدث بحضرة وسيطة خارقة للعادة حقاً ، هي مدام «أوزابيا» فقبل الاقتراح مرتاحاً إلى أن هذا التمحيص سيكون بمساعدة رجال ممتازين في الأمراض العقلية وهم تامبوريني وفيرجيليو ونياتكي وفيزيوني وقد كادوا يكونون مثله في إنكار صحة المسألة التي هم بصددها. واتخذوا قبل البدء في التجارب أشد ما يستطاع من التحويطات . . . .

ويستمر قائلاً:

«وقد أبطلت أنا والدكتور تامبوريني حركة رجلي الوسيطة ويديها بواسطة أيدينا وأرجلنا، وبدأنا تجاربنا وأتممناها تحت ضوء مصباح مسرج، وكان أحدنا يشعل بغتة من آنٍ لآخر عوداً من الثقاب لمباغتة التدليس.

أما الحوادث التي شاهدناها والوسيطة على تلك الحالة فكانت عجيبة إذ استطعنا أن نشاهد في الضوء الساطع ، ارتفاع المنضدة وارتفاع كرسينا أيضاً بمقدار يُطلبُ من القوة لإنزالها ما يعادل ٥ ـ ٦ كيلو جرامات. وبناء على طلب أحد الحاضرين وهو المسيو جيوفلي الذي كان يعرف الوسيطة منذ زمن بعيد ، حدثت طرقات في باطن المنضدة ، وهذه الطرقات كانت تجيب في الوقت نفسه على المسائل التي توجه إلى القوة التي تحدثها ،

متعلقة بمعرفة أعمار الأشخاص الموجودين وما سيحدث وحدث من الأمور. وكانت هذه الطرقات تحدث بفعل ما يدعى أنه روح ميت.

وبعد قليل من الزمن أخذ جرس صغير كان موضوعاً على خُوانٍ يرنُّ في الهواء واستقر على سرير يبعد عن الوسيطة بنحو مترين. وبينما كنا نسمع رنين الجرس كلفنا الدكتور أسنسي بأن يقوم ويقف خلف مدام أوزابيا وأن يشعل عوداً من الثقاب ففعل واستطاع أن يرى الجرس معلقاً في الهواء ثم ذهب وسقط على السرير خلف الستار.

وسمعنا بعد ذلك ـ لأننا كنا لا نزال في الظلام ـ أن منضدة تتحرك بينما يدا الوسيطة كانتا مقبوضاً عليهما بشدة من الدكتور تامبوريني ومني أنا.

وفي نفس الوقت أحس الأستاذ فيزيولي بيد تجذب شاربه وتَخزُ ركبتيه وكانت تلك اليد صغيرة وباردة.

وفي نفس الوقت أيضاً سُحبَ من تحتي الكرسي الذي كنتُ جالساً عليه، وأعيد إلى مكانه ثانياً. وانتقل من مكانه فجأة بساط ثقيل في حجرة النوم كان على بعد أكثر من متر من الوسيطة، كأنما كان مدفوعاً بتيار من الريح، واتجه إليّ مغطياً جسمي كله. فحاولت أن أتخلص منه ولكني لم أستطع ذلك إلا بعد بذل جهد كبير. وشاهد بقية الحاضرين ألسنة صغيرة من النار تتألق على بعد عشرة سنتمترات فوق رأسي ورأس الدكتور تامبوريني.

وبعد قليل رأينا قطعة كبيرة من أثاث الحجرة التي كنا فيها موجودة بعيدة عن حجرة النوم وعلى مسافة مترين منا تقريباً، تسعى نحونا ببطء كأن أحداً يحملها. فكان الناظر إليها وهي تتحرك، يخيل إليه أن حيواناً كبيراً يمشي إلينا.

وقد كررت هذه التجارب مع الأساتذة دواميس وكيابا وفردينوا فرأيت

فوق ما رأيت أن كرسياً قفز من الأرض إلى سطح المنضدة ثم عاد إلى مكانه الأول . . . »[١] .

علام تدل هذه العجائب من الأعمال التي يقف أمامها العلم التجريبي حائراً مندهشاً ، ألا تدل على تغليب الروح على الجسد ، ألا تدل على أن هناك عالماً روحانياً أعظم قدرة وأكثر تحرراً ، وراء هذا العالم المادي؟

تحضير الأرواح[٢]

وهل بعد تحضير الأرواح عملياً يبقى شك أو شبهة؟

إن الأدلة تضافرت على إثبات وجود الروح والعالم الروحي ، والحجج القاطعة قضت بذلك. ومما زاد الأمر جلاء والدليل وضوحاً خضوع تحضير الأرواح للعلم التجريبي حتى أصبح علماً موضوعياً قائماً بذاته. له أصول وطرق ذكرتها الكتب المعنية بهذا الشأن ، ومعاهد مخصوصة لهذا الغرض. «ففي إنجلترا معهد دولي كامل الاستعداد يتولى تلك العملية في أي وقت. وتوجد إلى جانبه معاهد أخرى ترعاها الحكومة الإنجليزية لأنها تعتبر العلم الروحي ليس تدجيلاً أو شعوذة. وإنما هو في مقام العلم التجريبي من حيث الثبوت والصدق. وتوجد مجلات أسبوعية وشهرية منتظمة ومطابع لا تطبع إلا الكتب الخاصة بعلم الروحيات»[٣] .

---

(١) لماذا أنا مسلم ، عبد الرحمن العيسوي.

(٢) الرأي الراجح عندنا في تحضير الأرواح أنه لا تحضر أرواح الأموات أنفسهم بل تحضر أرواح أخرى من العالم غير المنظور. وهو دليل يقوم على نسف المذهب المادي نسفاً.

(٣) لماذا أنا مسلم ، عبد الرحمن العيسوي.

ومن عجائب طرق التحضير ما تُسمِعكَ صوتَ الروح الذي تطلبُ إحضاره ، ويُرِيكَ خَطَّهُ وتوقيعه كما كنت تعهده في حياته.

قال ج آرثر فندلاي:

«. . . ففي وجود الوسيط ، لا منه ، تتكلم أصوات تدعي أنها أولئك الذين ماتوا ، وعندما رددنا عليها أجابت إجابات كَيِّسة تثبت أنه ليس هناك عقل وراء الصوت فحسب ، بل هناك أيضاً روح قادر على أن يسمع كما هو قادر على أن يتكلم.

وكثيراً ما سمعت أنا وكثيرون غيري صوتين وأحياناً ثلاثة أصوات مختلفة نغمة ولهجةً وشخصية تخاطبُ في آنٍ واحد أولئك الحاضرين في موضوعات مختلفة لا يعرفها فقط إلا الشخص المقصود المخاطب ، على حين يكون الوسيط مشغولاً بالحديث في موضوع آخر مع شخص جالس بجواره ، أو على حين يكون فم الوسيط مُطْبقاً لا ينبسُ بكلمةٍ وأذني ملاصقة له».

ويقول في ص ٣٣:

«أما أن هذا الصوت غير صوت الوسيطة فقد تحقق عن طريق تلك الآلة المانعة للصوت التي وضعت على فم الوسيط فمنعتها من الكلام أثناء حديث هذا الصوت. وقد اخترعت هذه الآلة لتجعل الكلام من قبل الوسيط مستحيلاً عند استعمالها».

ويذكر حوادث كثيرة تدلل على أن صاحب الصوت شخص لا بد أنه هو الذي يدعيه الإنسان الذي كان يعيش يوماً معنا. فلقد ذكر أن صوتاً خاطب أحد الحاضرين قائلاً: «لقد رأيتك يا مستر لانج أنت ومسز لانج تتحدثان أمس مع البستاني. . . فيجيب مستر لانج قائلاً: «أجل هذا صحيح» فيقول: «نعم وكنت تطلب إليه أن ينقل شجرة ورد من جانب

المنزل ويضعها في مكان آخر من الحديقة»: فيجيبه: «هذا صحيح يا صديقي فلقد فعلت ذلك. وهل رأيت أو سمعت غير هذا؟» وهكذا يستمر الحديث بين الصوت والمستر لانج، ثم ينتهي ذلك الحديث بأن يقول مستر لانج: «نعم يا صاحبي لا بد أنك كنت هناك ولو أني لم أرك لأن كل ما حدثتني به قد وقع فعلاً». وبعدئذ يصبح الحديث أدخل في الأمور الشخصية. . . ».

«وقبل نهاية الحرب زارني جندي صغير من برث بأستراليا، فاستصحبته معي ذات ليلة إلى سلون ـ الوسيط فخاطبه صوت ذاكراً اسمه واسم الأورطة، فقال صاحبي: «ولكني متأسف لأني لا أعرفك»، فأجابه الصوت: «إنك تجد اسمي على نصب الحرب التذكاري المقام في برث». فقال صديقي: «ولكني لا أعرف أن في برث نصباً حربياً تذكارياً فأين هو فيها؟» قال: «إنه مقام في شارع . . . » وقد ذكر اسم الشارع. قال صاحبي: «إني أعرف برث معرفة تامة ولا يوجد فيها شارع بهذا الاسم». ومضت سنة على ذلك تسلمت بعدها خطاباً من صاحبي هذا يقول فيه: إنه قد أنشئ في أثناء غيابه شارع جديد بهذا الاسم في المتنزه وأقيم على مثلث هناك نصب تذكاري محفور عليه اسم الرجل وفق ما أخبره به في الجلسة بالضبط.

بل هناك ما هو أغرب من ذلك أنها تُريكَ الروحَ بعينهِ ولو كان متوفى منذ أعوام طويلة.

وذكر عن «مدام أوزابيا» الوسيطة الروحية أنه طلب الماليُّ هيرشي منها أن يتكلم مع روح إنسانة كانت عزيزة عنده فرأى وجهها وكلمته بالفرنسية. وكانت فرنسية الجنس وماتت منذ عشرين سنة. وكذلك الدكتور بارت رأى أباه الذي عانقه مراراً.

وقد اخترع العلماء أجهزة خاصة لتصوير الروح وإظهار صوته

وتسجيله على أسطوانات مخصوصة. وأغرب من ذلك أن هذه الأرواح تستعين على الظهور لنا ومخاطبتنا بأن تستعير من الوسيط أو من الحاضرين مادة الأكتوبلازم وتجعل منها قناعاً نستطيع به رؤياها ومخاطبتها . . . «ومن عجائب العالم الروحي أنه توجد في عالمنا هذا مؤلفات من تأليف الأرواح وليست من تأليف أحيائنا منها كتاب (تعاليم سيلفر بيرش) وقد حُلِّي صدرُ هذا الكتاب بصورة الروح مأخوذة بالطرق العلمية الحديثة. وهذا الروح المؤلف (تعاليم سيلفر بيرش) يظهر أسبوعياً ويحاضر في مختلف الشؤون وتستغرق محاضراته تسعين دقيقة متوالية، يدون خلالها كل ما يقوله. وسجلوا لهذا الروح صوته على أسطوانة نفدت بعد ظهورها بأيام»(١).

وجاء في كتاب (حجرة تحضير الأرواح) تأليف الدكتور أدرين فردريك باورز أستاذ الأمراض العصبية في جامعة مينا بولس بالولايات المتحدة ص ١٢٢ كلاماً شبيهاً بهذا، نصه:

سجل في لندن صوت عميد الأرواح المتصلة بنا وهو الروح المسمى نفسه سيلفر بيرش Silver Birch فوق أقراص الجرامافون، وقد نفدت هذه الأقراص بعد أسبوع من ظهورها. ووسيط هذا الروح للغيبوية في دائرة الكاتب اللبق والصحفي القدير هانن سوافر Hannen Swaffer صاحب التآليف الروحية الشهيرة، والمحرر في جريدة التيمس هو الكاتب الروحي العلامة موريس باربانل M.Barbanel محرر بمجلة توورلدز. وقد قام بعملية تسجيل الصوت فيليب هيامز Mr. phlip Hyasmis مهندس شركة تسجيل الأصوات المسماة سمسون هوم ريكوردنج كومباني بلندن.

---

(١) لماذا أنا مسلم، ص ٤٩، عبد الرحمن العيسوي.

Samson Home Recording Co. Preasd str. London. W. وهذه الشركة مستعدة لإرسال مهندسها لتسجيل أصوات الأرواح المراد تسجيلها إزاء جُعْلٍ معين».

المكاشفات

ومن عجائب العلم الروحي «المكاشفات».

ونعني بالمكاشفة إزاحة الستار عن العالم المستور وتبدّيه، ورؤية الأرواح عياناً وذلك واقع. فقد ذكر الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) بأن ذلك أول درجات الصوفية. يقول الإمام:

«ومن أول الطريقة تُبتدأ المشاهدات والمكاشفات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق».

قال الباحث الكبير ج. آرثر. فندلاي في كتابه على «حافة العالم الأثيري ص ٣٠»:

«ينقسم البحث الروحي إلى عدة أقسام، يبحث أحدها مثلاً في مسألة التحريك عن بعد elekinesis أي نقل الأجسام دون لمسها، ويبحث ثان في الظواهر العقلية كالغيبوبة trance والجلاء البصري، أي رؤية غير المنظور clairvoyance والجلاء السمعي، أي سماع غير المسموع clairaudience والتلباثي، أي الشعور عن بُعْد telepathy. ويختص ثالث بدراسة ما يسمى الصوت المباشر أو المستقل».

حدثني رجل معروف بصلاحه وهو يناهز العقد السادس من العمر أنه

بينما كان مستغرقاً في ورده المخصوص في إحدى الرياضات الروحية بعد إحدى صلوات العشاء، إذ انكشف له الحجاب وأُزيحَ الستارُ عن المجهول أمام ناظريه فيقول: والله ما أنا إلاّ على تمام من اليقظة إذ أرى العالم المستور كهذه الشمس الضاحية ، وهل في هذه الشمس مسكة من الشك؟

عن عبد الله بن مسعود أنه قال: صلى رسول الله ﷺ العشاء ثم انصرف فأخذ بيدي حتى خرج إلى بطحاء مكة فأجلسني ، ثم خَطَّ علي خطاً ثم قال: لا تبرحن خطك فإنه سينتهي إليك رجال فلا تُكلمهم فإنهم لا يكلمونك. ثم مضى رسول الله ﷺ حيث أراد ، فبينا أنا جالس في خطي إذ أتاني رجال كأنهم الزط أشعارهم وأجسامهم لا أرى عورة ولا أرى بشراً وينتهون إليَّ لا يجاوزون الخط ، ثم يصدرون إلى رسول الله ﷺ حتى إذا كان آخر الليل؛ لكن رسول الله ﷺ قد جاءني وأنا جالس فقال: لقد رآني منذ الليلة ثم دخل عليَّ في خطي فتوسد فخذي فرقدَ ، وكان رسول الله ﷺ إذا رقد نفخ ، فبينا أنا قاعد ورسول الله ﷺ متوسد فخذي إذا برجال عليهم ثياب بيض الله أعلمُ ما بهم من الجمال فانتهوا إليَّ ، فجلس طائفة عند رأس رسول الله ﷺ وطائفة منهم عند رجليه ثم قالوا: ما رأينا عبداً قد أُوتيَ مثل ما أوتي هذا النبي إن عينيه تنامان وقلبه يقظان اضربوا له مثلاً مثل سيد بنى قصراً ثم جعل مأدبة فدعا الناسَ إلى طعامه وشرابه فمن أجابه أكل من طعامه وشرب من شرابه ، ومن لم يُجِبْه عاقبه أو قال: عَذَّبه. ثم ارتفعوا واستيقظ رسول الله ﷺ عند ذلك. فقال: سمعتَ ما قال هؤلاء وهل تدري مَنْ هم؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم. قال: هم الملائكة. فتدري ما المثل الذي ضربوه؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم. قال: الرحمنُ بنى الجنة ودعا إليها عبادَهُ فمن أجابه دخل الجنةَ ومن لم يجبه عذبه.

ومن الثابت عندنا أن الإنسان في حالة النزع قد يُكشفُ له الحجاب

ويرى الملائكةَ عياناً ويخاطبهم ويرد عليهم تحياتهم، وقد يرى أقاربه الأموات ويحادثهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام] ولقد تكلم في هذا الأمر خَلْقٌ كثير في القديم والحديث. وقد وردت حكايات كثيرة بهذا الشأن. وقال ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال].

«وقصة خير النساج رحمه الله مشهورة حيث قال عند الموت:

اصبر عافاك الله فإن ما أُمرتَ به لا يفوت وما أمرتُ به يفوت.

ثم استدعى بماء فتوضأ وصلى، ثم قال: امضِ لما أُمرتَ به، ومات.

وذكر ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز لما كان في يومه الذي مات فيه قال: أجلسوني، فأجلسوه. فقال: أنا الذي أمرتني فقصرتُ ونهيتني فعصيت (ثلاث مرات) ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأَحَدَّ النظرَ، فقالوا: إنّك لتنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين. فقال: إني لأرى حضرة ما هُمْ بإنسٍ ولا جن ثم قُبِضَ.

وقال مسلمة بن عبد الملك: لما احتضر عمر بن عبد العزيز كنا عنده في قبة. فأومى إلينا أن اخرجوا فخرجنا فقعدنا حول القبة وبقي عنده وصيف. فسمعناه يقرأ هذه الآية ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص] ما أنتم بإنس ولا جان. ثم خرج الوصيف فأومي إلينا أن ادخلوا فإذا هو قد قُبِضَ.

وقال فضالة بن دينار: حضرت محمد بن واسع وقد سُجِّيَ للموتِ فجعل يقول: مرحباً بملائكة ربي ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

---

(١) كتاب الروح لابن القيم.

وحدثني أحد الأصدقاء أنه كان حاضراً وفاة عمه مع بقية أعمامه وأهله فقال:

كان عمي على تمامٍ من التمكُّنِ من نفسه حين حَضرتْهُ الوفاةُ ، وقد قال: ها أنا يا إخوتي أُحِسُّ بالموت يدب في جسمي ويسري في أعضائي.

يا إخوتي! ليس الموت إلا خدراً يُفْقِدُ الأعضاء الحس. هاتِ دبوساً يا بني. اغرزه في رجلي. . ها أنا لا أحس. إن رجلي قد ماتت. وبعد هنيهة قال: يا إخوتي! يا أخي فلان وأنت يا فلان وأنت يا فلان هل تنكرون من عقلي شيئاً؟ ألا ترون أني على تمام من التمكن من نفسي؟ ها أنا أسرد لكم أخباركم إن كنتم تشكّون في ذلك.

وبدأ يقص على كل واحد منهم ما حدث له وهم لم ينكروا عليه شيئاً. فقال:

إذن فاعلموا ، أنني أرى الآن جملاً أبيض ضخم الجثة باركاً وسط هذه الغرفة. لا تقولوا كيف؟ فأنا متعجبٌ أكثر منكم. أنا أعلم أننا في غرفة في الطابق العلوي وأن الدرج الضيق يحولُ بيننا وبين الأرض فلا تسألوني كيف صعد ومن أين دخل؟ فأنا أولى أن أسأل هذا السؤال. ولكن اعلموا هذا وكفى.

يا إخوتي! ها أنا أرى شيئاً آخر. يا إخوتي! يا إخوتي. . فخانه التعبير ، وأراد أن يتكلم فتقطَّعتْ نبراته. وأخذ ينظر نظرات حادة ويتنهد تنهدات عميقة. فما استطاع أن يبوحَ بأكثرَ من هذا ، وحِيلَ بينه وبين ما أراد.

ففاضت روحهُ رحمه الله. . .

وورد في الخبر أن المُحتضرَ يُكشف له عن مقعده من الجنة أو النار. فقد جاء عن ابن عباس أنه قال:

بينما رسول الله ﷺ ذات يوم قاعد تلا هذه الآية ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام] الآية. قال: والذي نفسُ محمدٍ بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة والنار، ثم قال فإذا كان عند ذلك صُفَّ له سماطان من الملائكة ينتظمان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما يرى غيرهم وإن كنتم ترون أنهم ينظرون إليكم، مع كل منهم أكفانٌ وحنوط، فإن كان مؤمناً بَشَّروه بالجنة. وقالوا: اخرجي أيتها النفسُ الطيبة إلى رضوان الله وجنته فقد أَعدَّ الله لكِ من الكرامة ما هو خير من الدنيا وما فيها، فلا يزالون يُبَشِّرونه ويحفون به فلهم ألطفُ وأرأف من الوالدة بولدها، ثم يَسلُّون روحه... إلخ) الحديث. وهناك ضربٌ آخر من المكاشفات نذكر طرفاً منها في باب الفراسة لأنه ألصق به.

إثبات وجود الروح

ماذا نعني بالروح؟

إننا لا نعني بـ«الروح» هذه الحياة التي في الأجهزة والخلايا، والتي هي موجودة في الحيوان والنبات كما في الإنسان، ولا ينبغي على ذلك أن نُفرِدَ الإنسانَ بها. وما كان ليستحق الإنسان بها أن يُسْجِدَ اللهُ له ملائكته.

ولكننا نعني بها لطيفةً ربانية وجسماً نورانياً شفيفاً متميزاً عن هذا الجسم المادي النابض بالحياة. تستطيع الانفصال عنه بعض الانفصال من غير أن يفارق حياته أو تتوقف أجهزته. وهي التي تدبره وتحركه وتُريد وتَعافُ ونحن لا نعرف كنهها لأنها من عالم الغيب.

قال الدكتور محمد عبد الله دراز :

«ليس المقصود بالروح هنا ـ حسبما يوحي به التعبير غير الموفق ـ باسم المذهب الحيوي ومبدأ الحياة الحيوانية ، أعني تلك القوة التي تقوم عليها وظائف النمو ، والتنفس ، والحس ، والحركة ، بل المقصود نوع آخر أسمى من ذلك ، هو مبدأ حياة التفكير ، والإرادة المنظمة ، والعاطفة ، والضمير ، وبالجملة مبدأ الحياة العاقلة الرفيعة .

كل أحد يستطيع أن يميز بين هذين النوعين ، ويدرك أن هذا الروح ، الذي هو خاص بالإنسانية ، ذو كيان مستقل عن ذلك الروح المشترك بين الإنسان والحيوان .

فنحن نرى النائم والمُغْمى عليه والمصروع يتنفسون ويتغذون ويمشون ، فهم أحياء بالحياة الحيوانية ليس غير ، حتى تعود إليهم تلك القوة الخاصة فيعود إليهم شعورهم المنظم وتفكيرهم المستقيم .

هذه التجربة صحيحة ، والفكرة التي استُنبطت منها ، وهي التمييزُ بين القوتين ، فكرة سليمة ، لا يزال العلم يقررها حتى يومنا هذا» .

رأي الشرع في جسمية الروح وتميزها عن هذا الجسم[1]

إن الأدلة الشرعية على جسمية الروح وأنها متميزة عن هذا الجسم من الكثرة بمكان . ولا نريد أن نستقصيها كلها ، بل نكتفي بأدلة قليلة من القرآن الكريم والسنة المطهرة .

---

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب «الروح» لابن القيم .

١ ـ قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر]. فقد أخبر الله سبحانه أنه يتوفى الأنفس حين الموت وفي النوم وأنه يمسكها أو يرسلها. وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على تميزها.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام] تذكر الآية بأن الملائكة يبسطون أيديهم لتناولها، كما وصفها بالإخراج والخروج، وهذا لا يكون إلا لجسم متميز.

٣ ـ وقال أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر]. فوصفها سبحانه بالطمأنينة والرجوع ووصفها بالرضا والدخول.

٤ ـ ومما يدل على ذلك أيضاً قوله ﷺ: «الأرواحُ جنودٌ مجنَّدة فما تَعارفَ منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فوصفها بأنها جنود مجندة. والجنود ذواتٌ قائمة بنفسها، ووصفها بالتعارف والتآلف والتناكر والتخالف. وذلك يدل قطعاً على تميزها وجسميتها.

٥ ـ إقرار الرسول ﷺ قولَ عمارة بن خزيمة: إنَّ الأرواح تتلاقى في المنام.

٦ ـ قوله ﷺ: «أرواحُ الشهداء في حواصلِ طيرٍ خُضْرٍ تَسرحُ في الجنة حيث شاءت وتأوي إلى قناديل العرش . . .» مما لا يدع مجالاً للشبهة.

٧ ـ حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ عن كيفية نزعِ المؤمن ونزع الكافر وهو حديث طويل ومنه:

«فإذا صارت[١] إلى مَلَكِ الموت ابتدرها الملكان فأخذاها منه فحنَّطاها بحَنُوطٍ من الجنة وكفَّناها بكفنٍ من الجنة ثم عرجا به إلى الجنة».

ويتكلم عن روح الكافر قائلاً: «. . . وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال: اخرجي أيتها النفسُ الخبيثة. اخرجي إلى غضب الله وسخطه فتفرق روحه في جسده كراهيةَ أن تخرج لما تَرى وتُعاين فيستخرجها كما يُستخرج السفُّودُ من الصوف المبلول. فإذا خرجت نفسه لعنه كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين ثم يصعد به إلى السماء فَتُغلَقُ دونه. . . ».

وهو يدل قطعاً على جسمية الروح. فقد أخبر أنها تُكفَّنُ بكفنٍ وتُحنط وتحمل وتؤخذ . . . وذلك لا يكون إلا إذا كانت متميزة.

٨ ـ وفي حديث الصور أن إسرافيل عليه السلام يدعو الأرواح فتأتيه جميعاً أرواح المسلمين نوراً والأخرى مظلمة فيجمعها جميعاً فيعلقها في الصور ثم ينفخ فيه فيقول الرب جل جلاله: «وعِزَّتي ليرجعنَ كلُّ روحٍ إلى جسده فتخرج الأرواح من الصور مثل النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيأتي كل روح إلى جسده فيدخل . . .».

وذلك كله مما يدل دلالةً قطعية على جسمية الروح وتميزها وأنها غير الحياة، فبينا نرى الروح خالدة باقية، إذا بنا نرى الجسد قد تمزقت أوصاله وتفتت عظامه وافترقت ذراته.

وجودها

عرف الناس وجودها من قديم الزمان، وأَحسُّوا بها بين جنبيهم، تسكنُ أجسامهم وتأوي أبدانهم. فهم عرفوا أن لكل جسم صاحباً،

(١) النفس.

وساكنُ أجسامِهم وصاحب أبدانهم يُحِسُّونه هم ويدركونه هم ، فبهذه النظرة الأولية الصادقة أدركوا وجود الروح .

وعلى كل فإنا سنستلهم الأصول في تقرير وجودها ولا نذهب مذاهب فلسفية بعيدة .

أدلـة وجـودهـا

ـ ١ ـ

التفكير والعلم

يقول البعض: إن المخ هو الذي يفكر ويعقل ، ونقول نحن: إنه الروح . . إذ كيف يفكر المخ وهو مادة غافلة عن وجودها لا تعرف نفسها ولا أقسامها ووظائفها[1]؟

إنه لو لم تكن هناك ذات أخرى تحل في البدن تعرف وجودها لبطل التفكير .

إن الذي يفكر ويعقل هو الروح ، أما المخ فهو آلة للإدراك . واستعداده لذلك كاستعداد آلات النجار والصائغ للعمل .

فالنجار وإن كان قادراً في صنعته ، ماهراً في مهنته ، إلا أنه لا يستطيع أن يعمل ويقطع ويطعم ويزخرف إلا بآلات يستخدمها . فالروحُ تستخدم العقل للتفكير كما يستخدم النجار آلاته .

يقول الدكتور هنري لنك عن العقل : «فكما أن الأسنان خُلقت للمضغ بها لا لمضغ نفسِها ، كذلك العقل قد وُهِبَ للتفكير بواسطته لا للتفكير في استكناه أمره ، فالعقل آلة نعيش بها لا لأجلها» .

---

(١) راجع برهان الذات .

وإن الشرع ليؤيد هذا الرأي. ففي عدة أماكن من القرآن الكريم نرى الخطاب موجهاً إلى النفس، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر].

وفي الحديث عن البراء بن عازب «... وجاء مَلَكُ الموت فجلس عند رأسه[1] ثم قال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه، فتنسلُّ نفسه كما تقطر القطرة من السقاء ...».

وهذا الخطاب من ملك الموت لنفس المحتضَرِ لمن يفهمُ ويعقل.

وفي الحديث الصحيح عن الشهداء لما سئلوا ما يريدون؟ قالوا: نريد أنْ تُردَّ أرواحُنَا في أجسادنا حتى نقتل فيك مرة أخرى.

فهذا سؤال وجواب من ذاتٍ حَيَّة عالمة ناطقة. وأخبر ابن عباس أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك اللهُ أرواحَ الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها. مما يدل على أن الأرواح هي التي تُسأل وتُفكر وتَعقل، وأن التفكيرَ ليس ظاهرة جسدية.

ـ ٢ ـ

الشعور بالنفس ومعرفة الذات

إن كل إنسان يشعر بنفسه ويحس بذاته. فمن أين تنبع هذه المعرفة ويصدر هذا الشعور؟

إن أكبر الظن أنه يصدر مع التفكير ومن نفس الشيء المفكر، فإذا ثبت أن المخ ليس هو المفكر ـ وهو ثابت ـ ثبت كذلك أن الذي يُشعره بوجودهِ ويُعلِمُه بذاته هو شيء غير المخ وهو ما نسميه بالروح.

---

(١) المحتضر.

إنه لو لم تكن ذات أخرى شاعرة بوجودها عالمة بنفسها تَحلُّ في هذا الجسد الغافل لما شعر بنفسه وعرف بوجوده. وأنه متى تركت هذه الذاتُ الجسدَ غفلَ عن نفسه كما في النوم[1]، أجهزة الإنسان كلها بكامل حياتها ولكنه غافل عن وجوده.

وأدلة الشرع تثبت لنا أن الأرواح هي التي تعلم بنفسها وتحس بوجودها وتعرف ذواتها لا الجسد. وفيما تقدم من الأدلة كفاية لمن أراد الاقتناع.

ـ ٣ ـ

الذات هي الروح

شعور الإنسان بنفسه، ومعرفته بذاته وراء جسمه المادي ووراء أجهزته هو الروح بعينه. والتي حينما يُثيره شخصٌ أو يُهينه بكلمةٍ أو صفعة يعرف أن الإهانة ليست موجهة إلى أجزائه ولا إلى عضو من أعضائه، وإنما إلى ما وراء الأجهزة، إلى غير المنظور منه، إلى ذاته، إلى نفسه.

ـ ٤ ـ

الفرح والحزن

الفرح والحزن والإرادة والكُره لا تكون إلاّ من الروح، فهذا الفرحُ الشفيف، والحزن العميق والإرادة المحركة من أين تنبع؟ ومن أين تصدر؟ هل هناك عضو من الأعضاء يفرح ويَألمُ ويريد ويَعافُ ويفيض بهذه الصفات على غيره؟

---

(١) فالمقصود أن هذه الأجهزة وإن كانت بكامل حياتها فإن الإنسان لا يشعر بواسطتها بوجوده دون وجود الروح. (الناشر).

إن هذه لا تصدر إلاّ عن الروح ولا تكون إلاّ في الروح. وإنّ القرآن الكريم والأحاديث النبوية لَيُقِرّانِ ذلك ولا يُنكرانه.

يقول الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر] فهو يصفها بالاطمئنان والرضا والدخول في الجنة للتمتع.

ويقول في آية آخرى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [آل عمران] فهو يصف أرواح الشهداء بأنها تفرح وتستبشر ولا تخاف أو تحزن، بعكس أرواح العصاة والكافرين.

ويقول ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارفَ منها ائتلف وما تناكرَ منها اختلف» فوصفها بالتعارف والتآلف، كما وصفها بالتناكر والتنافر.

ـ ٥ ـ

الأنا (الذات)

إن كلمة (أنا) أو ما نسميها بالذات تُصاحبُ الإنسانَ طوال حياته ولا تتغير بمرور الزمن كما يتغير بدنه. فهو يشعر بأن ذاته بقيت هي نفسها لم تتغير بالرغم من أن بدنه في حالته الحاضرة غيره بالمرة في الأعوام الماضية، فهو دائم التبدل والتغير، فقد ذهب شيئاً فشيئاً وجاء مكانه بالأغذية بدن آخر. وعلى الرغم من ذلك فإن الإنسان في الخمسين من عمره يشعر بأنه عين الإنسان في كهولته وشبابه ويعترف بأعماله الماضية. فما هو هذا الثابت غير المتبدل على مر الدهور وكر الزمن؟ أليس هو الروح؟!

ـ٦ـ

الذاكرة والدماغ

كتب الفيلسوف الفرنسي الكبير «برغسون» عن النفس والبدن والروحية والمادية كتباً كثيرة وعقد فصولاً غير قليلة في ذلك، وسنقتطف منها شيئاً قليلاً عما نحن بصدده.

إنَّ الذاكرة هي الوظيفة النفسية التي كان من أسهل الأمور أن نفسرها تفسيراً مادياً. ولكن الذاكرة أكثر من وظيفة من وظائف الشعور، إنها الشعور ذاته. وإذن، إنَّ مسألة العلاقات القائمة بين النفس والبدن سوف تتخذ شكلاً دقيقاً وهو: هل نستطيع أن نجعل من الذاكرة وظيفة من وظائف الدماغ؟

كانت النظرية المُجمع إجماعاً عاماً على تَقبُّلِهَا في العصر الذي كتب فيه «برغسون» هي التالية: إن الذكريات تنطبع في الدماغ على شكل آثار يتركها التيار العصبي فيه. وكان البرهان على ذلك، كما يقال، هو أن إصابات المراكز الدماغية تؤدي إلى «الأمنيزيا» أو النسيان المرضي. لقد حدد «بروكا» Broca المراكز الدماغية لذاكرة الكلمات تحديداً دقيقاً جداً...

إن «برغسون» يذهب قبل كل شيء ليثبت أن هذه النظرية لا تحسب للتجربة حسابها إلاّ بصعوبة. والحقيقة أن هناك حالات تشفى فيها الأمنيزيا، فالمريض يجد الذكريات التي «أضاعها» مرة ثانية، وإذن فهذه الذكريات لم تكن موجودة في الخلايا الدماغية التي أبادتها الإصابة، وإلا لكان لا بد لها من أن تذهب معها إلى غير رجعة.

إن الفرضية التي توحي بها هذه الوقائع هي التالية: إن كل شيء يحدث كما لو كانت الذكريات المحفوظة في مكان آخر غير الدماغ، تحتاج مع ذلك إلى تكامل بعض الأجهزة الدماغية من أجل أن تستدعى. إن ما تخربه الإصابة الدماغية وما يعاد بناؤه في حالة الشفاء هو الجهاز الدماغي الذي لا بد منه لاستدعاء الذكريات. فلنر الآن كيف بررت هذه الفرضية. يقول «برغسون»:

إن لم تكن الذكرى مخزونة في الدماغ، فأين تُحفظُ إذن؟

الحق يقال، إنني لست متيقناً فيما إذا كان السؤال «أين» له معنى، حينما لا نعود نتكلم عن البدن، إن الصور الفوتوغرافية تُحفظ في علبة، وإن الإسطوانات الصوتية تحفظ في خزانة، ولكن، لماذا كانت الذكريات التي ليست أشياء مرئية ولا ملموسة تحتاج إلى ما يحتويها، وكيف يمكن لها أن يكون لها ما يحتويها؟ ومع ذلك، إنني سأتقبل معنى الاحتواء هذا إذا ما تَشَبَّثُتم به، ولكنني سأفهم فكرة الاحتواء فهماً مجازياً خالصاً، بحيث تصبح الذكريات قابعة في ما يحتويها، وهذا سيدعوني عندئذ إلى القول، بكل بساطة، إنها في الفكر. إنني لا أقوم بافتراض من الافتراضات، ولا ألجأ إلى جوهر من الجواهر الغامضة، وإنما أتشبث بالملاحظة، إذ إنه ما من شيء مُعطى بصورة مباشرة ولا من شيء واقعي بصورة بديهية، أكثر من الشعور، والفكر الإنساني هو الشعور بالذات. ومن جراء ذلك كان الشعور يعني الذاكرة، قبل كل شيء (الطاقة الروحية ص ٨٥).

ولننظر في الواقع كيف أن الذاكرة والشعور شيء واحد.

إنني حينما ألفظ كلمة «حديث» لا يحضر أول الكلمة ووسطها

وآخرها إلى ذهني فقط ، بل تحضر الكلمات السابقة لها ، وحتى ما لفظته من الجملة ، وإلا لفاتني سياق الحديث.

وإذا كان الماضي ينعدم في كل لحظة ، كان لا بد للفكر أن ينعدم فيه. إن الحاضر الخالص هو اللاشعور.. لندفع بهذا التفكير إلى نتائجه ، ولنفترض أن حديثي يدوم منذ سنوات ، وأنه يتابع جملة وحيدة ، ولنفرض أن شعوري كان منفصلاً انفصالاً كافياً عن المستقبل ، وغير مهتم اهتماماً كافياً بالفعل ، في سبيل أن يتطوع تطوعاً نهائياً ، ليجمع معنى الجملة: وعندئذ ، فأنا لن أبحث عن تفسير أُفسر به كيفية حفظ هذه الجملة حفظاً كاملاً أكثر مما أبحث عن تفسير أفسر به كيفية بقاء المقطعين الأولين من كلمة (حديث) حينما ألفظ المقطع الأخير (الطاقة الروحية ص ٥٨ ـ ٦٠).

إن كل الماضي يُحفظ ، وهذا الحفظ هو الشعور ذاته ، فلنذكّر بذلك. إن وجود الذاكرة مثل وجود الشعور لا يمكن الشك فيه ، وهو معطى بصورة مباشرة على حد سواء. إنه ما من حاجة بعد الآن للإتيان ببرهان على وجود الذاكرة مثل وجود الشعور ، لا يمكن الشك فيه ، وهو معطى بصورة مباشرة ، على حد سواء. إنه ما من حاجة بعد الآن للإتيان ببرهان على وجود الذاكرة ولتفسيرها ، كما أنه ما من حاجة للإتيان ببرهان عام على وجود الشعور ، بل إن ما يتطلب تفسيراً ، بالمقابل ، هو النسيان الذي يغيب فيه مجموع ذكرياتنا . . . إن العمل والانتباه إلى الحياة هما اللذان يكتبان القسم الأكبر من ماضينا باستثناء ماضينا المفيد.

وظيفة الدماغ الحقيقية: ولكن الدماغ ـ كما يعلمنا ذلك علماء الفيزيولوجيا ـ هو عضو تركيز العمل ، . . . إن وظيفة الدماغ هي تضييق

ساحة الشعور ، إلى درجة يستطيع معها أن يتطابق مع الحاضر ، ومع الغاية المباشرة للعمل. . . يستخرج من الشعور كل ما يمكن الاستفادة منه في سبيل إنجاز العمل ، ويلف بالظلمة القسم الأكبر مما تبقى. . فهو لا يقوم بحفظ الماضي ، وإنما في حجبه في بادئ الأمر ومن ثَمَّت في تركِ ما يصلح للعمل يشف عن ذاته. . . ولكن خلف الذكريات التي تأتي ، وتحشر نفسها على هذا النحو في أعمالنا الحاضرة. . . آلافاً مؤلفة من الذكريات الأخرى ، قابعة في القاع تحت المشهد الذي يضيئه الشعور. . . إن حيواتنا الماضية قائمة هناك ، محفوظة حتى في أدق تفاصيلها. . . بيد أن الذكريات التي تحفظها ذاكرتي ، على هذا النحو ، في أشد أعماقها ظلاماً لا تزال في حالة أشبه ما تكون بالأطياف الخفية. . ولكن ، افترضوا أنني «لم أعد أهتم» في لحظة معينة بالوضع الراهن ، والعمل الملحاح. افترضوا بتعبير آخر ، أنني أنام. عندئذ فإن هذه الذكريات الساكنة تبدأ بالحركة ، حينما تشعر أنني بدأت بإزاحة الحاجز ، ورفعت باب الحفرة الذي كان يمسكها في أعماق الشعور. إنها تنهضُ وتتحرك وتقوم في ظلمة اللاشعور برقصةٍ هائلة من رقصات الأموات. ثم تركض كلها معاً نحو الباب الذي بدأ بالانشقاق. (الطاقة الروحية ١٠١).

الخلود المحتمل: ويتابع «برغسون» الكلام:

ولكن ، هذا معناه أيضاً ، أنَّ حياة الروح لا يمكن أن تكون نتيجة من نتائج حياة البدن ، وأن كل شيء يجري خلافاً لذلك ، كما لو كان البدن مستخدماً من قبل الروح بكل بساطة ، وأنه ليس لنا أي حق بعدئذ في أن نفترض أن البدن والروح مرتبطان فيما بينهما ارتباطاً لا ينفصل. . .

إذا كانت الحياة الذهنية تفيض عن الحياة الدماغية ، وإذا كان الدماغ

ينحصر عمله في تحويل قسم صغير ، مما يجري في الشعور ، إلى حركة كما حاولنا أن نبرهن على ذلك ، فإن الاستمرار في الحياة سيصبح عندئذ شبيهاً بالحقيقة ، حتى أن الإلزام بالحجة سيقع على من ينكر ، أحرى من أن يقع على من يثبت ، لأن السبب الوحيد الذي يدعو إلى الإيمان بانطفاء «الشعور» بعد الموت ، هو رؤية البدن يتحلل ، وأنه ما من قيمة لهذا السبب ، وإن كان استقلال الشعور بكليته تقريباً عن البدن ، هو أيضاً واقعة نلاحظها. إننا لا نستطيع إلا أن نعجب بهذه السهولة التي انقلب فيها كلٌّ من وضعي الروحيين والماديين. إن المفكر المادي هو الذي يجب أن يدافع عن موقفه الآن ، ومن شأنه أن يدلي بحججه بعد أن لم يعد هذا من شأن المفكر الروحي . . .

وعلى هذا النحو ، فإن الفكر قد «أُعيد لذاته» ، فالماديةُ والحتمية اللتان جعلتاه يشك بنفسه وبمصيره ، لم تعودا إلا طيفين عابثين.

ـ ٧ ـ

حقيقة النفس

قال ابن مسكويه في «الفوز الأصغر» مستدلاً على حقيقة النفس:

إن كل عضو من أعضاء البدن إنما هو آلة مستعملة لغرض لم يكن لينال إلا به. فإذا كان البدن كله آلات ولكل آلة فعل خاص لا يتم إلا بها ، اقتضى استعداده كما تستعد آلات الصائغ والنجار وغيرها.

وليس يجوز أن نقول إن بعض البدن يستعمل بعضه هذا الاستعمال لأن البعض هو آلة أو جزء من آلة، وجميعها مستعملةٌ ومستعمِلُها غيرُها.

فإذا كان مستعملها غيرها ولم يكن بجزء منها ، وَجبَ أن يكون غير

جسم[١] وأن لا يستعملَ مكان الجسم ، ولا يزاحم الآلات الجسمية في مواضعها.

ثم يعقب ابن مسكويه على ذلك قائلاً ببرهان علمي: «والمزاج والأعراض التي توجد في الجسم كلها تابعة للجسم ومنفعلة عن نظام تركيبه ، فلا يمكن أن تكون مسيّرة للجسم مع أنها ناتجة عنه».

يقول أ. كريسي موريسون في كتابه (العلم يدعو للإيمان) «. . . فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً. ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه. والعلم لا يعلل من يتولى إدارته ، وكذلك لا يزعم أنه مادي.

لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره. ولا يزال الإنسان في طور طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه «بالروح». وهو يرقى في بطء ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته بأنها خالدة».

- ٨ -

قال الفخر الرازي في (التفسير الكبير): «إنّا نعلم بالضرورة أنّا إذا أبصرنا شيئاً عرفناه ، وإذا عرفناه اشتهيناه ، وإذا اشتهيناهُ حَرَّكنا أبداننا إلى القُرب منه ، فوجب القطع بأن الذي أبصر هو الذي عرف ، وأنَّ الذي عرف هو الذي اشتهى ، وأن الذي اشتهى هو الذي حرك إلى القرب منه ، فيلزم القطعُ بأن المُبْصِرَ لذلك الشيء والعارفَ به والمشتهي والمتحرك إلى القرب منه شيء واحد ، إذ لو كان المبصرُ شيئاً والعارف شيئاً ثانياً

---

(١) يقصد أنها ليست بجزء من هذا الجسم الإنساني ولا شيء يشبهه.

والمشتهي شيئاً ثالثاً والمتحرك شيئاً رابعاً لكان الذي أبصر لم يعرف ، والذي عرف لم يَشْتهِ والذي اشتهى لم يتحرك ، ومن المعلوم أن كون الشيء مبصراً لشيء لا يقتضي صيرورة شيء آخر عالماً بذلك الشيء ، وكذلك القول في سائر المراتب. وأيضاً فإنا نعلم بالضرورة أن الرائي للمرئيات لما رآها فقد عرفها ، ولما عرفها فقد اشتهاها ، ولما اشتهاها طلبها وحرك الأعضاء إلى القرب منها ونعلم أيضاً بالضرورة أن الموصوف بهذه الرؤية وبهذا العلم وبهذه الشهوة وبهذا التحرك هو لا غيره» ثم يمضي في الاستدلال إلى أن يقول: «وبينا أن المدرك لجميع المدركات والمحرك لجميع الأعضاء بكل أنواع التحريكات يجب أن يكون شيئاً واحداً. فلم يبق إلا أن يقال في الإدراك والقدرة على التحريك إنه شيء سوى هذا البدن وسوى أجزاء هذا البدن. وإن هذه الأعضاء جارية مجرى الآلات والأدوات ، فكما أن الإنسان يفعل أفعالاً مختلفة بواسطة آلات مختلفة فكذلك النفس تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتتفكر بالدماغ وتعقل بالقلب. فهذه الأعضاء آلات النفس وأدوات لها. والنفس جوهر مغاير لها مفارق عنها بالذات متعلق بها تعلق التصرف والتدبر. وهذا البرهان برهان شريف يقيني في ثبوت هذا المطلوب والله أعلم»[١].

- ٩ -

وقال الفخر الرازي أيضاً: إنه لو كان الإنسانُ هذا الجسدَ لكان إما أن يقومَ بكل واحد من الأجزاء حياةٌ وعلم وقدرة على حِدة ، أي يكون كل جزء من الجسم حياً قادراً على حدة ، وإما أن يقوم بمجموع الأجزاء حياةٌ

---

(١) التفسير الكبير ٢١/٤٨

وعلم وقدرة ، أي تكون في كل جزء من الأجزاء الحياةُ نفسها والعلمُ نفسه والقدرة نفسها .

وقد أبطل القسمين فلم يبق إلا أن يكون الإنسان في الحقيقة غير هذا الجسد «أمّا بطلان القسم الأول فلأنه يقتضي كون كلٍّ واحدٍ من أجزاء الجسد حيّاً عالماً قادراً على سبيل الاستقلال، فوجبَ أن لا يكون الإنسانُ الواحدُ حيواناً واحداً؛ بل أحياء عالمين قادرين، وحينئذٍ لا يبقى فرقٌ بين الإنسان الواحد وبين أشخاص كثيرين من الناس وربط بعضهم بالبعض بالتسلسل لكنَّا نعلمُ بالضرورة فسادَ هذا الكلام لأني أجدُ ذاتي ذاتاً واحدة لا حيوانات كثيرين. وأيضاً فبتقدير أن يكون كل واحد من أجزاء هذا الجسد حيواناً واحداً على حِدة فحينئذٍ لا يكون لكل واحد منها خيرٌ عن حالِ صاحبه فلا يمتنع أن يريد هذا أن يتحركَ إلى هذا الجانب ويريد الجزء الآخر أن يتحركَ إلى الجانب الآخر فحينئذٍ يقع التدافعُ بين أجزاء بدن الإنسان الواحد كما يقع بين شخصين. وفسادُ ذلك معلومٌ بالبديهة .

وأما بطلان القسم الثاني فلأنه يقتضي قيامَ الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وذلك معلومُ البطلان بالضرورة . . . لأن بتقدير أن تحصل الصفةُ الواحدة في المحالِّ المتعددة فحينئذ يكون كل واحد من تلك الأجزاء حياً عاقلاً عالماً فيتجرد الأمر إلى كون هذه الجثة الواحدة أناساً كثيرين. ولما ظهر فساد القسمين ثبت أن الإنسان ليس هو هذه الجثة»[١] .

بقي هناك قسم آخر متمم لهذين القسمين وهو أن تكون الحياة والقدرة والعلم إنما هي قائمة بمجموع الأجزاء لا على وجه الاستقلال ، أي أن حياة الإنسان وقدرته وعلمه إنما هي تكون بمجموع الأجزاء كالآلة

---

(١) التفسير الكبير ٢١/ ٤٩ .

الواحدة المترابطة، فمجموعها هو الآلة ولو نقصَ قسمٌ منها لفسدت واختلّتْ وظيفتها.

وبطلان هذا ظاهر أيضاً، ومن أدلة بطلانه أن الإنسان ـ كما ذكرنا في برهان الذات ـ قد تقطع أطرافه وتقلع عينيه وتَستأصلُ رئته ويبقى شعوره بنفسه كاملاً هو هو لم يتبدل، بل نقلت لنا أخبار الطب أن القلب استُبدلت بمكانهِ آلةٌ ميكانيكية وبقيَ الشخصُ شعورهُ بنفسه هو هو لم يتغير، وقد رأينا صورة هذا المريض بالتلفاز ورأينا الآلة إلى جانبه تعمل وهو يتحدث عن نفسه. فلو كانت الحياة والعلم وغيرهما من الصفات الإنسانية إنما تقوم بمجموع الأجزاء لنقص شعوره بنفسه وبعلمه.

قال الفخر الرازي: «إن الإنسان إذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تُقطعَ يداه أو رجلاه أو تُقلع عيناه أو تقطع أذناه إلى غيرها من الأعضاء فإن ذلك الإنسان يجد من قلبِه وعقله أنه هو عين ذلك الإنسان ولم يقع في عين ذلك الإنسان تفاوتٌ حتى إنه يقول: أنا ذلك الإنسان الذي كنتُ موجوداً قبل ذلك إلاّ أنه يقول: إنهم قطعوا يديَّ ورجليَّ. وذلك برهان يقيني على أن ذلك الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء والأبعاض وذلك يُبْطِلُ قولَ من يقول: الإنسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة»[١].

ـ ١٠ ـ

ولنعد بعد فنسأل: ما شأن الذكي الألمعي، والفَطِن اللبيب، ما شأن الشاعر المُفْلِق والخطيب المِصْقع والفصيح المُلْسِن؟ ما شأن المُنكِّت الفَكِه صاحبِ الروح الخفيف؟ ما شأن الشجاع الأوحد، وصاحب

---

(١) التفسير الكبير ٢١/ ٤٢.

الفراسة التي لا تخطئ؟ ما شأن هؤلاء كلهم؟ ماذا يسيطر عليهم ، ومن أَعَدَّهم هذا الإعداد الفريد؟

إنه ليس كلُّ مَن حفظ الشعرَ أو قاله أصبح المتنبي أو البحتري، وما كل من درس البلاغة والفصاحة أصبح الأكثمَ أو سحبان ، وما كل من تَفكَّه أصبح جحا، وما كل من حملَ الرمح أصبح عنترة. على ماذا يدل هذا النشاط الفريد؟ ألا يدل على نشاطٍ خاص في أرواحهم واستعداد فيها؟

ثم ما شأنُ الموهومِ والمعتوه الذي لا يُظهرُ الفحصُ الطبي والشعاعي أيَّ خللٍ في أعصابه وفي أي عضو من أعضائه؟ وما شأن البليد الذي لا يحفظ ولا يفقه ما يُلقى إليه ولو كان مرورهُ عليه أكثرَ من الحبلِ الذي أَثَّرَ في الصخرةِ الصماء؟ وما شأن ذلك الثقيل الظل الجافي الطبع ، والرجل الجامد الذي لا تحركه الدنيا إنْ قامت وإن قعدت؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز عن «وجود الروح»:

«. . . فالواقع أن الفكر قد يلجأ إليها إلجاء لتفسير ظواهرَ معينة لا يجدُ لها تفسيراً آخر. ذلك أنه كثيراً ما يحدث في ميدان النشاط الإنساني حوادث عجيبة ، تخرج خروجاً بَيِّناً ، علواً أو انحطاطاً ، عن المستوى المألوف للناس، أو المألوف للشخص نفسه في مجرى حياته العادية ، بل لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجود هذه الشواذ التي لا يُعرف لها سبب ظاهر فتنسب إلى سبب من تلك الأسباب المعنوية السرية، فالعرَّاف الماهر ، والشاعر المُلهم ، والخطيب المُفَوَّه والبطل المُوقَّى ، والصائد الذي لا يخطئ سهمه ، والحاسب السريع الحساب ، السديد الجواب ، من غير استعانة بقرطاس ولا قلم ، في أطول المسائل وأشدها تعقيداً ، والألمعيُّ الذي يظنُّ بك الظنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا» كل أولئك ينسب نجاحهم وعبقريتهم إلى أنهم أُمِدُّوا بروح خيِّرة ، ذات قوة خارقة.

أضف إلى هذا ضروباً من التجارب الجزئية في الرؤيا الصادقة ، والفراسة السديدة ، والإلهام الكاشف ، والعلم بالحوادث البعيدة ساعة وقوعها ، ورؤية الأشباح ، وسماع الأصوات ، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا يستقيم تفسيرها بسببٍ من الأسباب المادية».

- ١١ -

الخواطر والإلهام

إن خَلْق الإنسان من العجب بمكان. كأن فيه جهاز استقبال لما يحدث. فأحياناً وعلى غير ميعاد تحضر في نفس الإنسان صورةُ قريبٍ أو غريب بعيد عنه وإذا به ماثلٌ أمامه. وكثيراً ما كانت تترددُ في خاطري صورُ أشخاصٍ لا أتوقعُ أن أراهم. وكانت تتردد الصورة أحياناً عليَّ يوماً أو أكثر حتى أعجب من نفسي وإذا بي أفجأ برؤيتها وكأنْ ذلك إعلامٌ بالمجيء.

وقد يحس الإنسان أحياناً كأن حادثاً لا بد أن يقع وإذا بحدث يجدّ وكأن روحه تنتظره.

وقد يُحِسُّ المرء أحياناً بانزعاج شديد وكآبة تُخَيِّمُ عليه ويبدو له أنه غير مرتاح وكأن هناك حدثاً مخفياً عنه وإذا بالقدر يَفجؤُه بما كان يزعجه. وقد حدث مرة مثل هذا الأمر لشخص كان خارج العراق وقد أصبح ذات يوم واجماً كئيباً صامتاً ، كأن على رأسه الطير ، تكاد تَنهدُّ قُواه ، فعجب منه صديقه الذي كان بصحبته. وكلاهما لا يعرف سبب ذلك. ولم تُخَفِّف الترويحات المصطنعة ومقابلات الأصدقاء شيئاً من هذا الوجوم. وبَيْناهُ كذلك إذا ببرقيةٍ تحملُ له نبأ قتلِ صديق من أصدقائه.

وكان أحدٌ ذات مرة في بيته وإذا بوالدته تفجؤه بصيحة: غرق أخوك! فضحك لهذا الخبر وقال: هو من وساوس النساء، خاصة وأن المدينة ليس فيها نهر. وبعدما خرج من الدار أُنبئَ بأن أخاه الأصغر قد أنقذه أحد الجيران من الغرق وهو يشرف عليه في إحدى السواقي الكبار.

وذكر عن علي رضي الله عنه أنه لما كانت الليلة التي أُصيبَ فيها أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يُؤذِنُه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام علي يمشي وهو يقول:

اشْدُدْ حيازيمكَ للموتِ فإن الموتَ لاقيكا
ولا تجزعْ من الموتِ إذا حَلَّ بواديكا

وقد تحس أحياناً بأنك مدفوع إلى القيام بعمل ما، وكأن هاتفاً من أعماق نفسك يهيبُ بك أن تعمله، كما قد ترى نفسك مصروفاً عن عمل آخر كنتَ ترغبُ فيه، وكأنك تُحذَّرُ من مغبة الخوض فيه. فينكشفُ لك الأمر في كليهما على حقيقته.

وقد تُقدِمُ أحياناً على عملٍ ما وأنت شاعر مبدئياً بعدم نجاحه مهما اجتهدتَ في إنجاحه فإذا بالعراقيل تُحيطُ به من جميع الجوانب حتى يَخيب. وبالعكس فقد تقدم على عمل وتحس بأنه كائنٌ لا محالة حتى كأنك تحلفُ عليه وإذا به كما تتوقع.

وهناك نوع آخر من الخواطر يسمى (الإلهام)، وهو أن يلمعَ في القلب «شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالي إلى حد ما»[1]، فتحسُّ به ممتلئة نفسك مطمئناً إليه قلبك. ولكنك لا تدري من أين جاء ولا كيف حصل؟

---

(١) إحياء علوم الدين.

قد يحلو بعد ذلك لقائلٍ أن يقول: إنه العقلُ الباطن يتلقى الأخبار عن بُعد فيخبرنا بها. ولكن لا نحن ولا هم يعرفون ما هو هذا العقل الباطن؟ أَهُوَ عقلٌ آخر من لحم وعصب، أم ماذا؟ وهل أظهره التشريحُ؟ وأين يكون هذا العقل في الجسد؟

لا جواب على ذلك سوى أنه عقل باطن وحسب.

أليس هذا اعترافاً بوجود نشاط آخر في غير نطاق الجسد يجهلُ الإنسان كُنْهَهُ ويقوم به باطنٌ خفي؟ أليس ذلك اعترافاً حقيقياً بالروح؟ وهل الروح غير ذاك، شيء خفي يقوم بنشاط عجيب خارج نطاق الجسد؟ إنه لعمري الإقرارُ الصريح بوجود الروح تحت اسم آخر وذلك لا يضير.

ـ ١٢ ـ

الرؤى الصادقة

ثم هذه الرؤى الصادقة كيف تحدث؟ إن أمرها عجيب.

إنسان نائم فاقد الشعور يرى حلماً تنبؤياً فيتحقق تماماً. قد يراه واضحاً لا غبار عليه مثل فَلقِ الصبح، وقد يرى بعض جوانبه أو دلالالته، وقد يحتاج بعضها إلى التأويل. فيتكشف له ويتبدى ما كان قد رآه، كحلم يوسف الشهير وحلم فرعون مصر وحلم صاحبي السجن. والأحلامُ التنبؤية من الكثرةِ بحيث لا يماري فيها أحد. وليس من الممكن تعليلها على الصدف مهما تَمَحَّلَ المتمحلون وادّعى المُدَّعون. إنها لا تدل إلا على اتصال الروح الإنساني بعالم آخر وتَلَقِّيه عنه، فينفتح له من المغيبات ما ينفتح.

فقد ذُكِر أن عاملاً رأى نفسه كأنه يصعد على السلم الحديدي في مقر

عمله فيهوي منه وتُقطع رجله. فتشاءم من هذه الرؤيا وأخبر زملاءه بأنه لا ينوي العمل ذلك اليوم بسبب الرؤيا التي رآها. فسخروا منه وأخذوا يشجعونه على العمل حتى بدأ بالعمل وانغمر فيه ونسي نفسه. فصعد على السلم لأمرٍ ما وهوى منه، وأشار الطبيب بقطع رجله فقطعت كما رأى تماماً في منامه.

وذكرَ لي مَنْ لا أتهمُ من زملائي بأن أحد أصدقائه كان يعمل في منطقة نائية عن أهله. وإذا به فيما يرى النائم كأن زوجه وضعت له ولداً ووضعته في الأرض فتدحرج وسقط في بئر كان في وسط الدار ولم يستطع أن ينقذه. فتشاءم من هذه الرؤيا وكاتبَ أهله عما إذا حدث عندهم حادث، فأخبروه بأنه أتاه ولد في اليوم الذي رأى رؤياه، ومات في نفس اليوم.

وذكر لي أحد أصدقائي بأن والدته استيقظت ذاهلة قبيل الفجر وذكرت أنها رأت شخصاً ـ يعرفونه ـ يسكن في قرية بعيدة عنهم أصاب نفسه بثلاث طلقات نارية حين كان يعبث بمسدس في يده في حفلة عرس. وجاء في الصباح الباكر مَنْ يحمل هذا النبأ بنفسه إلى أهل القرية.

وحدث لي أنني واعدتُ خمسة من الأصدقاء لصلاة الصبح في أحد المساجد. واستيقظت بعد الوقت المضروب بيننا بربع ساعة تقريباً. فصليتُ الصبح في بيتي وعدت إلى الفراش. وإذا بي أرى أحدهم يصلي منفرداً في محل غير المسجد. وأرى اثنين آخرين يطرقان الباب على صديقهم الآخر وينادونه باسمه، حتى إذا خرج سألهم عني فأجابه أحدهم بأني نائم أو ناسٍ.

وذهبوا جماعة إلى حيث كان الشخص الأول يصلي فاجتمعوا أربعة. أما الخامس فلم أره. حتى إذا استيقظت كنتُ حريصاً على أن أخبرهم بالرؤيا قبل أن أحادثهم فإذا بها تنطبقُ تماماً صِدقاً بنفس الأسلوب وبنفس

الوقت والأشخاص وبعين الكلمات التي أخبرتهم بها. أما صديقهم الخامس الذي لم أره فلم يستيقظ ولم يوقظوه.

وكنت أراسل صديقاً مصرياً وكانت تنقطع رسائله عني الأسابيع والأشهر أحياناً. حتى إذا أتت رسالة منه استقبلتها في المنام فأذهب إلى موزع الرسائل أتسلم منه الرسالة. وبقيت هذه الحالة أكثر من سنة ونصف. ما أتت رسالة إلا واستقبلتها في المنام. ورأيت مرة رسالتي في الرقابة وبعد أربعة أيام تسلمتها بعد أن رأيتها مرة أخرى مع ساعي البريد في المنام. وكنت رأيت مرة رسالة آتية منه نفسه وشاهدت الموزع فلم يخبرني عن الرسالة. فقلتُ في نفسي: خابت الرؤيا اليوم. حتى إذا نمتُ الظهرَ رأيت الرسالة مرة ثانية تُدفَعُ لي. وبعد العصر أعطاني الموزع الرسالة نفسها.

وكم سمعت وقرأت أن عدداً من الطلاب يرون بعض أسئلة الامتحان في النوم ومنهم من يرى حَلَّها أيضاً.

هذا شيء مدهش ومُحَيِّر للعقول أيضاً، ويدل دلالة قاطعة على وجود الروح. وإن هناك من الأحلام التنبؤية ما تحتاج إلى تعبير فهي ليست واضحة كالتي سبقت، ومن ذلك أنه قال حابس بن سعد الطائي لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين إني رأيتُ الشمس والقمر يقتتلان والنجوم بينهما نصفين. فقال عمر: مع أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس.

قال: كنتَ مع الآية المَمْحُوَّة، اذهب فلست تعمل لي عملاً ولا تُقتلُ إلا في لَبْس من الأمر، فقتلَ يوم صفين.

وقال رجل لابن سيرين: رأيتُ معي أربعةَ أرغفة حين طلعت الشمس، فقال: تموتُ إلى أربعة أيام.

وقال آخر: رأيت الشمس والقمر اجتمعا ودخلا في جوفي فقال له:

تموت، واحتج بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾ [القيامة].

وحديثاً ليس بالبعيد قال رجل لعابر من أهل العلم: كأنَّ الشمسَ تطلع حتى إذا كادت ترتفع غربت من مشرقها ثلاث مرات. وفي المرة الثالثة غربت ولم تعد. فقال العابر: إن رؤياك تدل على أنني سأموت بعد ثلاثة أيام. وقد وقع.

وكثير غير هذا.

ولَرُبَّ سائلٍ يسأل: كيف تلتقي الأرواح بأهلها وأحبائها وقد يكون الشخص بعيداً عنهم آلاف الأميال حتى إذا أتى مَنْ يُوقظه استيقظ فجأة؟ وتظهر لنا بساطة الجواب إذا عرفنا أن سرعة الضوء تبلغ ١٨٦,٠٠٠ ألف ميل في الثانية. فلا يبعد على الروح أن تكون كالضوء على أقل تقدير.

وإن هذا التعليل للرؤى الصالحة يوافقُ الشرعَ كل الموافقة، فقد جاء في الأثر أنه لقي عمرُ بن الخطاب عليَّ بن أبي طالب فقال له: يا أبا الحسن ربما شهدتَ وغِبنا، وشهدنا وغبتَ. ثلاث أسألك عنهن عندك منهم علم؟ فقال علي بن أبي طالب: وما هن؟ فسأله عمر عن الحب والبغض وعن النسيان وكان سؤاله الثالث: «... والرجل يرى الرؤيا فمنها ما يَصدقُ ومنها ما يكذب؟ فقال: نعم. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ما من عبدٍ ينام يتملى نوماً إلا عُرجَ بروحه إلى العرش. فالذي لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق، والذي يستيقظ دون العرش فهي التي تكذب».

وذكر أيضاً أنَّ عبد الله بن عباس قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين أشياء أسألك عنها. قال سَلْ عما شئتَ... وكان مما سأله: مِمَّ تَصدقُ الرؤيا ومم تكذب؟ فأجابه، إن الله عز وجل يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] فمن دخل في

ملكوت السماء فهي التي تَصدقُ ، وما كان منها دون ملكوت السماء فهي التي تكذب .

وقال عبد الله بن عمرو: إن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط . ورفعه بعضهم إلى النبي ﷺ .

وقال عكرمة ومجاهد: إذا نام الإنسان فإن له سبباً يجري فيه الروح وأصله في الجسد فتبلغ حيث شاء الله . ما دام ذاهباً فالإنسان نائم ، فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان وكان بمنزله شعاع الشمس الذي هو ساقط بالأرض ، فأصله متصل بالشمس .

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال: إن الروح يمتد من منخر الإنسان ، ومركبه وأصله في بدنه . فلو خرج الروحُ بالكلية لمات ، كما أن السراجَ لو فُرِّقَ بينه وبين الفتيلة . ألا ترى أن مركب النار في الفتيلة، وضوؤها وشعاعها يملأ البيت، فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان في منامه حتى تأتيَ السماء وتجولَ في البلدان ، وتلتقي مع أرواح الموتى، فإذا أراه المُوكَّلُ بأرواحِ العباد ما أَحبَّ أن يُريه وكان المرئي في اليقظة عاقلاً ذكياً صدوقاً لا يلتفتَ في يقظته إلى شيء من الباطل رجع إليه روحهُ فأدّى إلى قلبه الصدقَ مما أراه الله عز وجل حسب خلقه[١] .

وجاء في كتاب «السيكولوجيا والروح» للأستاذ أحمد فهمي أبو الخير ص١٩ ما نصه: إن الروح تغادر الجسد خلال النوم، وتمضي في سياحتها فتجوب في عالم المادة وعالم الروح ، وينعدم لديها الزمان والمكان بالمعنى المفهوم لدينا، فترى من الأحداث الشيءَ الكثير، وتكونُ طيلة ذلك متصلة بالجسد المادي بحبلٍ أثيري يستطيلُ وينكمش

---

(١) راجع كتاب «الروح» لابن القيم.

وينثني وينفذ من الجدران ، وتلك الظاهرة هي التي يسميها العلم الروحي الحديث «طرح الجسم الروحي» . فإذا أفلت هذا الحبل من الجسد حدث طرحٌ دائمي للروح ، أي موتٌ . وهذا الطرح يحدث خلال الغيبوبة الوساطية أو السبات العميق الذي ينتج من مخدر كالكلوروفوم أو خلال ما يسمونه «تعليق الحيوية» عندما يدفن فقراء الهنود مثلاً أنفسهم أياماً وأسابيع في الثرى» .

وقد أفصح كارنجتون وملدون في كتابهما «طرح الجسم الروحي» في ذلك أيَّ إفصاح عند كلامهما عند النوم قالا « . . . ومما لا شك فيه أننا لن نصلَ البتة إلى نظرية صحيحة ملائمة تُفسر النومَ ما لم نُسَلِّمْ بوجود قوة حيوية ، ووجود روح آدمية قائمة بذاتها ، تنسحب كثيراً أو قليلاً من الجسم خلال ساعات النوم» . وترى مصداق ذلك في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر] .

- ١٣ -

التنويم المغناطيسي

والتنويم المغناطيسي لا يقل عجباً عما سبق . . وسيط يُنوَّمُ تنويماً صناعياً وتُرسل روحهُ إلى حيث يشاء المنوِّم بَعُدَ المحلُّ أم قَرُبَ . فيرى ويسمع ويُخْبِرُ بما رأى وسمع . فإذا استطلع الخبر وجد كما قال . وكم عملت تجارب بخصوص هذا الشأن فكانت كما أخبر الوسيط .

ولقد حدّث مَنْ لا أتهم أنه أتى منوماً في غير بلدته لأمرٍ ما ، يقول : فدخلت عليه ونَوَّمَ وسيطهُ بحضوري وسأله عن اسمي واسم والدي وعملي وعن بلدتي وعما جئتُ من أجله ، وتعمق في ذلك فسأله عن أهلي وأفراد

عائلتي ومقدار الدراهم التي في جيبي، ونوع وعدد السكائر التي أحملها، وهو يجيبُ عن كل ذلك إجابةً صادقة لا يتطرق إليها شك أو شبهة.

كما حدثني رجلٌ آخر مثل هذا الخبر.

وقد ذكر «السر الكسندر كانن العلامة الإنجليزي الشهير صاحب المقام الخامس في النزل الأبيض الأعلى في هملايا» في رسالته (في عالم الطيف) أشياء عجيبة عن التنويم، وقال: إنه يمكن الاستفادة منه في التداوي على نطاق واسع. وإن التحليلَ النفسي لا يأتي بفائدةٍ ما تُذكر إذا ما قيسَ بعلاج التنويم. وذكر تحت عنوان (تشخيص الأمراض بالطريقة المغناطيسية) ص ٢٧: «إن المبادئ التي سأدرجها سيكون لها دَوِيٌّ عظيم وستؤثر على تطور علم الطب.

يجلب شخصاً ثالثاً وينوم تنويماً عميقاً ويدرس علوم التشريح والفيزياء تعليماً وافياً وهو متروبص، أي: يمشي أثناء نومه، فبعد أن يتم دراسته على هذه الصورة تُلقى إليه أسئلة فيجيب عنها بدقة مدهشة ويصبح قديراً في تشخيص الأمراض ويصح في مروياته. ولا تعرف طريقة علمية أكثر دقة من هذه. وليس من الضروري للمريض أن يذكر شيئاً عن دائه لأن النائم الخبير يعرف كل شيء وهو نائم، فهو يُشَخِّصُ الداء ويصفُ الدواء ويعطي دلائل على تطور المرض. ولقد جاءت تجاربُ تبرهن على أن بعض النتائج التي يصعب استحصالها بواسطة أشعة إكس تُحَلُّ بكل سهولة بالتنويم المغناطيسي.

إن كل عضو من أعضاء البدن يبدو كأنه يُشَاهَدُ عياناً . . . والأعضاء اللمفاوية إذا شوهدت رمادية اللون فهذا دليل على أن المريض ضعيف البنية. حتى إنه يعرف كل ما يراد عن الدم مثل النسبة المئوية للحجيرات الحمر والبيض، وإذا كان ثمةَ زيادة أو نقصان في مقدار الكلس أو إذا

كانت جراثيم الملاريا والأمراض العفنة موجودة فيه. إن الأنسجة جميعها بما فيها من الغدد الصماء يمكن رؤيتها وعرفان كل ما يراد عنها . . .

والتنويم أيضاً يدلنا فيما إذا يوجد خَرّاجٌ في النخاع وأين هو موقع هذا الخراج، وكذلك يساعدنا في تشخيص مرض التصلب المنتشر في النخاع، وغيرها من الأمراض في تجاويف النخاع، ولا يقتصر التنويم على معرفة الأوضاع المرضية في النخاع فقط بل يُشخِّصُ الكسورَ في العظام والضغط على الأعصاب وموقع فقرات العمود الفقري. زِدْ على ذلك أن أمراض القلب تشخص بدقة كما تشخص باقي الأمراض بأجمعها. . . ».

وقد ذكر المؤلف أمثلة عمن عالجهم وشُفُوا من مرضهم. . . قال في ص ٥١:

«إن العالم النمسوي الشهير «مسمر» قال بوجود سوائل مغناطيسية تتدفق من البدن. فضحك علماءُ جيلِهِ، ولكنني على استعداد لأن أبرهن لأي عالم أو طبيب بوجود هذه المادة السائلة بحالة تدفقها من البدن وأصورها بواسطة آلة فوتوغرافية، وكذلك باستطاعتي أن أُثبتَ تأثيرها. وقد أثبتُّ ذلك إلى كثيرٍ من الذين انتقدوني ولم يؤمنوا بصحة نظريتي وبحقيقة هذه الظاهرة ولكنهم سرعان ما استسلموا للحقيقة بعد أن أثبتُّ لهم الطريقة عملياً».

- ١٤ -

التلباثي

لقد اعترف العلم الحديث بـ«التلباثي» على أنه حقيقة مُسلَّمٌ بها. والتلباثي هو التخاطر عن بُعْدٍ بين شخصين ليس بينهما وساطة، فيفهم كلاهما صاحبه وما يريد منه، كما حدث فعلاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب الجمعة في مسجد الرسول ﷺ حين قال الكلمة

المشهورة: يا سارية! الجبلَ الجبلَ. و«سارية» يَبعدُ عنه آلافَ الأميال فاستفاد سارية من نصيحتِهِ وانتصر الجيش. وحين قدم سارية سُئِلَ عن ذلك فأجاب بأنه سمع أمير المؤمنين يناديه ويأمره أن يلتزم الجبل. ولولا هذه النصيحة لهلك خَلْقٌ من الجيش، إذ كان جيش المسلمين يريد الوادي والروم تريد السفح من خلفهم وهم لا يدرون شيئاً عن ذلك. ففتح الله لأمير المؤمنين أن يبصر بنفسه ولم يتمالكْ نفسه أن ينادي قائده من منبر الرسول لئلا يهلكَ جيشُ المسلمين. فسمع سارية من وراء الفيافي صوتَ أمير المؤمنين والتزم بأمره(١).

إن حقيقة التلباثي المُسَلَّم بها علمياً لتدلُّ دلالةً قاطعة على وجود الروح مهما تمحل الماديون لتعليلها. وإن هذه الحقيقة التي لا يستطيع الماديون إنكارها لَتهدِّم كل ما يثار حول الروح.

- ١٥ -

الكلام على ما في الخاطر والفراسة

ومن الكلام على ما في الخاطر «قراءة الأفكار». وهو علمٌ من العجب بمكان، وحقيقته أن يتكلم شخص عما يجول بخاطر شخص آخر لم يُظْهِرْ أحداً من البشر عليه. وذكر عن علماء التيبت وغيرهم في خصوص هذا الأمر ما يكادُ السامعُ يقضي منه عجباً.

ولقد قرأنا أنه كان شاب يصحب الجنيد يتكلم عن الخواطر فَذُكِرَ للجنيد. فقال: إيش هذا الذي ذُكِرَ لي عنك؟ فقال له الشاب: اعتقد

---

(١) إن قصة سيدنا عمر هي من باب الكرامات وخوارق العادات وإن كانت وسيلتها الروح لا البدن. ع. ز.

شيئاً. فقال له الجنيد: اعتقدتُ. فقال الشاب: اعتقدتَ كذا وكذا. فقال الجنيد: لا. فقال الشاب: فاعتقد ثانياً. فقال: اعتقدت. فقال الشاب: اعتقدتَ كذا وكذا. ففال الجنيد: لا. قال الشاب: فاعتقد ثالثاً. قال: اعتقدت. قال الشاب: هو كذا وكذا. قال: لا.

فقال الشاب: هذا عجبٌ وأنتَ صدوقٌ وأنا أعرفُ قلبي. فقال الجنيد: صدقتَ في الأولى والثانية والثالثة، لكنْ أردتُ أن أمتحنك هل يتغير قلبك؟

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً، فقلت في نفسي، مثلُ هذا كَلٌّ على الناس. فنظر إلي وقال ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة] قال الخراز: فاستغفرتُ في سري. فناداني وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى].

وكان بين أبي زكريا النخشبي وبين امرأة سَببٌ قبلَ توبتهِ. فكان يوماً واقفاً على رأس أبي عثمان الحيري فتفكَّرَ في شأنها، فرفع أبو عثمان إليه رأسه وقال: ألا تستحي؟!

وأما الفراسة فهي أن يخطر في القلب شيء فيكون كما خطرَ له، وينفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيره. وليست هي من الظن في شيء فالظنُّ ما يُخطئ ويُصيب. وأما هي فصادقة صِدقَ العبدِ المؤمن. وقد أُثِرَ عن الرسول ﷺ أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»... فهي على الصحيح التماعاتٌ يقذفها الحقُّ سبحانه في القلبِ الصادق، الصافي صفاءَ المرآةِ تبدو فيه صورة الحقائق على ما هي عليه.

وليس هذا من علم الغيب، بل ما يقذفه علاَّمُ الغيوب من الحق في قلبٍ مستبشرٍ بنوره. وقد رأى رسول الله ﷺ بيت المقدس عياناً وهو في

مكة وذلك حين طلب منه أبو جهل أن يَصفَهُ له بعدما أخبر أنه أُسريَ به إليه في ليلةٍ واحدة. فصمت هنيهة فكشف الله عن عينيه الحجاب فرأى صورته أمامه ووصفه كما هو. ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق، ورأى أُمراءَهُ بمؤتة (زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة) وقد أُصيبوا وهو في المدينة وأخبر أصحابه بذلك.

ودخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه رجلٌ من الصحابة وقد رأى امرأة في الطريق فتأمَّلَ محاسِنَها، فقال له عثمان: يدخل عليَّ أحدكم وأثرُ الزنا بين عينيه. فقلتُ: أَوحيٌ بعدَ رسول الله ﷺ؟ فقال: لا ولكنها فراسة المؤمن.

ولا شك أن هذه الأمور لا يمكن أن تأتي عن طريق الحواس المعروفة، إذ ليس باستطاعتها النفوذ إلى الخواطر والأفكار وإنما هي من شأن الروح التي لا يحول دون وصولها إلى الأفكار حائل أو حجاب.

ـ ١٦ ـ

تصوير الروح الإنساني

ولئن جاز في عقل امرئ أن يشك فيما مضى، لا يصحُّ منه بحالٍ أن يشك فيما سنذكره وبعدما أثبت العلمُ التجريبي والتحقيق العلمي وجود الروح:

١ ـ تجربة مدام كوري: أثبتت مدام كوري بالتجربة الحاسمة أن الإنسان جسد وروح.

وكانت أولى تجاربها في هذا الصدد أن انتهزت فرصة اختبار أعمال الوسيطة الروحية «أسابيا بلادينو» في المعهد السيكولوجي بباريس،

وكانت «أسابيا» إذ ذاك في عنفوان قوتها الوساطية ، فجاءت بثلاثة كشافات كهربية وشَحنتها ، ثم طلب إلى الوسيطة إنْ كان لها روح تنسابُ من جسدها أن تفرغ بهذه الروح المنسابة الكشافات دون أن تلمسها بجسدها المادي. وفعلاً بإشارة من يدها تارة ، وبإيمائها من رأسها تارة أخرى ، استطاعت أن تفرغ الكشافات الثلاثة حيث انطبقت أوراقها الذهبية. فاستنتجت مدام كوري ومَنْ معها أن ثمةَ شيئاً خرج من جسد الوسيطة البعيدة عن الكشاف ثم لمسه ففرغت شحنته خلاله إلى جسم الوسيطة ثم إلى الأرض.

٢ - استخدام جهاز «مخدع ولسن Willson Chamben» قال الدكتور واترز إنه إذا كان هناك عنصر يُستخلص عند الموت فلا بد أن تدركه عدسة التصوير في هذا الجهاز ، ويتكاثف البخار فوقه كما يتكاثف فوق الإلكترونات مثلاً. وفعلاً التقطت العدسة الصور التي تكهَّنَ بوجودها. ونراه يقول عن ذلك إنه «بيِّنةٌ جديدة تُعيِّنُ نوعاً من طاقة يفقدها الجسم عند لحظة حدوث الموت الحقيقي. ولم تدل البينات الفيزيقية المستخلصة على أن ذلك الذي يفقده الجسم نوع من أنواع الطاقة فقط ، بل دلت على أنه جسم غير مادي انسلَّ من الجسم المادي في لحظة حدوث الموت ، وقد أمكن أن يُرى باستخدام بخار الماء».

ويستمر في تدليله قائلاً: «هَبْ أننا وضعنا حشرة كبيرة أو حيواناً صغيراً في مخدع ولسن ثم شرعنا في قتل ذلك الحيوان ، وهب أنه في اللحظة التي نَفَقَ فيها كان مكبس الجهاز قد أسقط واستحدثت سحابة. ويلاحظ أن هذه السحابة تتكون في هواء مُعَدٍّ من قَبلُ وقد أُخليَ من كل ما يمكن وجوده من الأيونات ، وذلك باستخدام كهربي استاتيكي كبير. ولنفرض بعد هذا أن الصورة الفوتغرافية الناتجة قد أظهرت لنا أننا في اللحظة التي مات فيها الحيوان قد نجحنا في إمساك كتلة أو جسم أو مقدارٍ

ما في بخار الماء فهذا المقدار الذي نجحنا في تصويره ـ كالأيونات ـ لا تُدركه العينُ ، غير أنه لسببٍ ما قد جذب الضباب فاستقر عليه بنفس الطريقة التي يستقر بها على الأيونات في مسار أشعة ألفا . . وإذا وجدنا أن هذا المقدار الذي نحن بصدده يطابق المقابل الفيزيقي للجسم الذي منه انسلخ منه ـ إذا وجدنا هذا فإنه لا يسعنا إلا الحكم بأن هذا المقدار الذي ظهر إنما هو ذلك الجزء الذي انطلق من الحيوان الذي أجريت عليه التجربة» .

وفي سلسلة من خمسين صورة حصل الدكتور .Dr.R.A. Watters F.R.S.A. (London) على نتائج إيجابية في أربع عشرة صورة. وكان الأسلوب المتبع في التجريب يقضي بأن يحقنَ الحيوان بعد التصوير بالحقن المُنَبِّهة لكي تُرَدَّ إليه الحياة. وقد لوحظ أن الحياة كانت ترد للحيوان في بعض الحالات التي كانت النتائج الفوتغرافية سلبية ، ولم يحدث قط في أي حالة ظهرت فيها صورة لذلك المقدار أنْ أمكنَ ردُّ الحياة إلى الحيوان.

وبعبارة أخرى لم يحصل قط على صورة فوتغرافية لهذا المقدار إلا وكان الحيوان مات حقيقة.

والنتيجة التي انتهى إليها الدكتور واترز هي أن ذلك المقدار بين الذري جسم غير مادي يطابق بالضبط الجسم المادي الذي انطلق منه ، وأنه متى انقطعت الصلة بين الجسمين حدثت الوفاة الحقيقية.

الأصل الثاني

الحياة بعد الموت

من اليسير علينا الآن ، وقد أثبتنا وجود الروح ، أن نؤمن بالحياة الأخرى ، ولكننا مع ذلك سنسير في تقرير الأدلة بما يسعفنا الله به»[١].

- ١ -

البعث ضرورة

هذه الدنيا ميدانُ معركةٍ بين الخير والشر ، وصراع بين الحق والباطل. وقد ينال الشر من الخير والباطل من الحق ، وتمر الأعوام وتتعاقب الأزمان وليس للحق صولة ينال بها من أعدائه.

لقد قضى على مسرح الدنيا أشخاص كثيرون وجماعات عدة ، سلب الطغيان أموالهم ، وداس البغيُ كرامتهم ، وأزهق الظلم أرواحهم ، وليس لهم ذنب فعلوه أو جرم ارتكبوه إلا أنهم نطقوا بكلمة الحق وصدعوا بها بين الناس.

---

(١) إن مَنْ عرف ربه آمن باليوم الآخر لا محالة ، ذلك أن من العدل والحكمة أن يُجازى الإنسان عن عمله، ولما كانت الدنيا ليست بدار جزاء فلا بد من يوم يجتمع فيه الخلق لينالوا جزاء أعمالهم. كما أننا نرى خلقاً كثيراً لا ينالهم كل الجزاء الذي يستحقون في الدنيا. فإفلاتهم من الجزاء قَدحٌ في عدل الرب إذا لم تؤمن بيوم آخر يُجازى فيه المسيء والمحسن. كما أنه من العبث أن يُخلقَ هذا الكونُ العجيب لغير غاية أو حكمة ، ولما كنا نرى الناس يموتون فلا بد من دار أخرى تظهر فيها حكمة خلقهم واضحة جلية. ومن أجل هذا كله وكون أن الإيمان باليوم الآخر أمرٌ بَدَهي ومن لوازم الإيمان بالرب جل جلاله ولوازم حكمته وعدله رَدَّ على الكافرين إنكارهم لليوم الآخر فقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۝١١٦ ﴾ [المؤمنون]؟ ع. ز . . . ».

فهل يا ترى ستذهب أرواح هؤلاء البرءاءُ عبثاً ، ودماء الشهداء هدراً؟ وهل ينجو الظالم مما اقترفت يداه، وقد أمعن في البغي والعدوان، وسلب الأموال بغير حق ، وأباد الأرواح الكريمة ، وأزهق النفوس البريئة؟

هل من المعقول أن تهلك أقوام وتُبادَ جماعاتٌ بلا إثمٍ ارتكبوه ولا ذنب فعلوه ، ثم لا يُرَدُّ إليهم حقهم المغصوب وكرامتهم المسلوبة؟

هل من المعقول أن يذهب هؤلاء وأولئك وليس لهؤلاء من أرجع إليهم حقهم ، وأدان أولئك على فعلهم؟

أي منطق في الحياة يقتضي ذلك؟!

أي منطق في الحياة يقتضي أن تُمتهنَ الكرامات ، وتزهق الأرواح ، وتباد الجماعات بسبب ظالم باغٍ وسفاكٍ أثيم؟

ثم أي منطق في الحياة يقتضي أن يذهب المجرمون الظالمون والغادرون الآثمون مُدِلِّينَ بسلطانهم متبجِّحينَ بكبريائهم ، ومن سيوفهم تتقطرُ الدماء ، ومن أيديهم تنبع الجريمة ، ثم لا يكون هناك يوم آخر يحاسبون فيه على ما اقترفت أيديهم؟ أي منطق في الحياة يقتضي أن يذهب شهداء الحق وحاملو ألويته كما يذهب عُبّاد الجريمة سواء بسواء وليس هناك من أدان أولئك وكافأ هؤلاء وأرجع إليهم حقهم؟

ما أيسرَ الظلم والطغيان إذن! وما أيسر الفجور والجريمة! وما أهزلَ منطقاً يَقتضيه!

إنه من غير المعقول ، ومن غير المنطقي أن يُعاقب أناسٌ ويفلت آخرون أعظم جرماً ، وأكبر خطراً وظلماً.

هناك أشخاص آذاهم الباطل بالباطل ، وصرعهم البغي بالإثم والعدوان ، فهل تذهب دماؤهم هدراً ، ويفلت القاتلون من العقاب؟

إن منطق الحياة يقتضي أن يُحاسبَ الإنسانُ على عمله ، ويُؤخذَ

الظالم بجريرته ، ويكافأ الجنود المجهولون ، والرجال المخلصون بعد أن أُزهقت أرواحهم ، وذهبوا في غيبة الحق في ظلمات السنين.

إنه تمشياً مع منطق الحياة بل تمشياً مع منطق هؤلاء وحججهم في الإثبات يقتضي أن يكون ذاك. إن منطقهم يقتضي هذا الأمر.

يقولون: إن الحاجة تقتضي أن يُزَوَّدَ النباتُ الصحراوي بمادة كيوتينية تمنعه من التبخر ، والحاجة تقتضي أن يكون للدُّبِّ القطبي وغزاله فروٌ ثخين وجلد سميك يمنعه عاديةَ البردِ والقر ، والحاجة تقتضي أيضاً أن يكون للجمل معدة ذات مخادع يخزن فيها الماء أياماً.

ألا تقتضي الحاجة كذلك أن يكون هناك يوم آخر ينتصفُ فيه المظلومون من الظالمين ، ويحاسب المجرمون على إجرامهم ، ويكافأ العاملون على إخلاصهم؟

ألا تقتضي الحاجة أن يعاقب الباغون الغادرون الذين انتهكوا الأعراض، وأراقوا الدماء، وأن لا يُسَوَّوا بشهداء الحق وصرعى الإخلاص؟

ألا تقتضي الحاجة أن تُعادَ الحقوق لأصحابها وترجع الأمور في نصابها؟

إنَّ الحاجة تقتضي أن يكون هناك يوم آخر ينصب فيه الحق ميزانه ، ويعلن أحكامه ، ويمتد إلى الباغين بالعقاب وإلى المحسنين بالإحسان.

إنها تقتضي ذلك اقتضاء تَمشّياً مع منطق الحياة الذي لم يُعهدْ عنه إلا الحصافة في كل شيء.

ـ ٢ ـ

البعث بعد الموت

إذا عرفنا ذاك وأدركناه ، وعسر علينا أن نفهم كيف يقوم الناس من مخادعهم ، وينهضون من مضاجعهم فلنقل إذن:

إن الإعادة أسهل من الإبداء ، وإن الفنان الذي يصنع التماثيل ويعملها أَيعجزهُ حينما تُكسرُ يدُ تمثال أو رجله أو أي عضو من أعضائه أن يعيده مرة أخرى؟ إن الذي صنع تصميم التمثال في فكره ، وأخرجه ماثلاً أمامه ، وعمل آلافاً على منواله لا يعجزه ذاك. لا يعجزه وقد صنعه حينما لم يكن إلا تصميماً في فكره ابتدعه هو.

أَتعجزُ القدرةُ التي صممت خَلْقَ الإنسان وهيأته وأخرجته إلى حيز الوجود أن تعيده؟ أَيعجزها أن تعيده مرة أخرى وقد أنهت تصميمه وجربت خلقه ملايين المرات؟

«إذا قيل إن كاتباً حاذقاً في الكتابة كتب ألف كتاب وأدرجها على أحسن وجه من غير غلط أو سهو أو نقصان ، ثم محا بعض حروفها فهل يمكن أن نقول إنه لا يقدر على كتابة ما محا؟».

إن القدرة التي سَطَّرت هذا الوجود بكلماتها وسطورها المتعددة هل يعجزها أن تكتب ما تمحوه بنفسها؟ إنها هي التي وضعت سنن الحياة والموت بنفسها فهي يعجزها أن تعيد ما سطرته بعد عَدَم؟

ـ ٣ ـ

هذه الحياة والحياة الآخرة

يقول بديع النورسي «... إن هذه الدنيا ليست لذاتها وبذاتها ، بل إنما هي منزل تُملأ وتُفرغ بحلولٍ وارتحال ، وإن ساكنيها مسافرون يدعوهم رَبٌّ كريم إلى دار السلام.

وإن هذه التزيينات ليست للتلذذ بل للتنزه فقط بدليل أنها تُلِذُّكَ آناً ثم تُؤلمكَ بفراقها أزماناً. وتُذيقكَ وتفتح اشتهاءك ثم لا تُشبعك لِقصَرِ

عُمرها أو قصر عمركَ ، بل إنما هي للعبرة وللشكر وللشوق إلى أصولها الدائمة ولغاياتٍ عُلْوية» .

ـ ٤ ـ

الإنسان والحياة الأخرى

يقول الأستاذ محمد عبد المنعم في كتابه (العقل المؤمن) :

«إن كل ما في الأرض من قرائن يدل على أن الإنسان هو المقصود بالخِلقة فيها ، وما عداه فمخلوق له لينتفعَ به. وله من حياته الفكرية والنفسية ما يُشعره بهذا القصد . . .

ونظرة واحدة إلى إخراج الأفراد من الأرحام بصور متعددة الوجوه ، وشكول مختلفة في العقول والنفوس ـ وهذا في الإنسان فقط ـ ، تَحملكَ على الجزم والاعتقاد بأن القصد في الطبيعة متجه إلى خلق الفرد بالذات ، وأنه مخاطب وحده.

الحق أن الفرد مقصود بالخلق ، مخاطب من واهب الحياة مباشرة بما فيه من الإدراك ، مراعى فيه تمييزه بصورته ونفسيته ليشعر بفرديته وغايته الخاصة ، فلا هو يشبه أخاه كما يشبه الغُراب الغرابَ والنملةُ النملةَ. . . فالفروق بين أفراد الأنواع الأخرى فروق ضئيلة لا تكاد تميز في الصورة ، ولا في الإدراك ، بخلاف الإنسان فإن تنوع صوره الظاهرة والباطنة لأمر محير. . .

وإني لأتساءل دائماً :

ما الذي أوجد في نفوس الإنسانية ذلك الشعور الثابت بأنها لا تفنى ولا تنتهي حياتها بدخول المقبرة؟ ولماذا لم تحملها موحيات الحياة على غير هذا الشعور لو أن الأمر غير ذلك؟

ثم لماذا نجد في خيالنا صورةً لحياةٍ كاملة لا قيودَ فيها للجسم ولا للروح؟ فمن أين لنا هذه الصورة؟

إن أقرب الفروض إلى الحق في دنيا العقل ، هو ما يدعو إلى صلاحية النفس للحياة، وإصلاحها لها، وما يُحَلُّ به أكبرُ مقدارٍ ممكن من المشكلات، وما صَحَّ تطبيقهُ على وجه الشمول بين الناس في كل مكان وزمان.

هذا ما يسلم به العلمُ والفلسفة ومذاهب الأخلاق والعمل. ومصير الإنسانية إلى حياة أخرى أسمى من هذه الحياة ، هو ذلك الغرض الذي ينطبق عليه ذلك التعريف السابق ، هو لا غيره».

- ٥ -

نــزعـة الـبـقـــاء

نظرة إلى الإنسان وباقي الأحياء:

إن في قلب الإنسان همة لا تَنِي ، وفي رأسه طموحاً لا يُحَدّ. إن آماله أوسع من أن تحققها هذه الحياة. . .

إنه يحب الخلود ويرغب في البقاء، ويهرب من الموت ويفر من الفناء.

«إن كل شيء قد حظيَ بكماله في دنياه بغير نزوعٍ منه إلى حياة أكمل ، مما يدل على أنه قد خُلقَ للحياة هنا فقط ، بخلافً الإنسان ، فإنه يشعر كأنه طيرٌ مقصوصُ الجناحين لا يزال يحلمُ بالجو الذي خُلِقَ ليعيشَ فيه. إن الإنسان العادي لا يحتمل أن يتلقى القول بأنه مخلوق للحياة هنا فقط دون أن يثور على الحياة أو يقنط قنوطاً قاتلاً لحيويته»(١).

هذا الإنسان الذي تهتف في أعماق نفسه غريزة حب الخلود ،

---

(١) العقل المؤمن ، عبد المنعم خلاف.

وتصايح في جوانبه نزعاتُ البقاء الدائم ، وهذا في الإنسان فقط «أما الحيوان فإنه ابنُ ساعتهِ ليس له ماضٍ يتأسفُ عليه» ، ولا مستقبل يرنو إليه ، ولا أمل واسع يتمنى تحقيقه ، «فالديك لو أمررتَ عليه سكينة الذبح لا يشعر إلا بألم الساعة ، عكس الإنسان الذي يحنُّ إلى ماضيه ويرنو إلى مستقبل بعيد» . . . إن هذا الأمر له دلالته ومعناه . . .

«إنه كما يدل جوع المعدة على وجود الطعام في الخارج ، يدل هذا الأمر دلالة قاطعة على وجود حياة أخرى» .

ـ ٦ ـ

خلود الروح

كثير من الناس يشاهدون موتاهم في المنام ، آباءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم ويُخبرونهم عن أشياء لا يعرفونها فإذا بها كما أخبروا . وهذا من الكثرة بمكان في السابق واللاحق في كل عصر ومصر . والأمثلة على ذلك كثيرة . منها أنه لما كان يوم اليمامة خرج ثابت بن قيس بن شماس مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب ، فلما التقوا وانكشفوا قال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ . ثم حفر كل واحد له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قُتلا وعلى ثابت يومئذٍ درعٌ له نفيسة ، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها . . . فبينما رجلٌ من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له : أُوصيكَ بوصيةٍ فإياك أن تقول هذا حلم فتُضيعَهُ . إني لما قُتلتُ أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ، ومنزلهُ في أقصى الناس ، وعند خبائه فرسٌ يستن في طِوَلِهِ ، وقد كفأ على الدرع بُرمةً وفوق البرمة رَحْلٌ ، فأتِ خالداً فَمُرْهُ أن يبعثَ إلى درعي فيأخذها . وإذا قدمتَ المدينةَ على خليفة رسول الله ﷺ يعني أبا بكر

الصديق فقلْ له: إن عليّ من الدَّيْنِ كذا وكذا ، وفلان من رقيقي عتيقٌ وفلان ، فأتى الرجل خالداً فأخبره فبعث إلى الدرع فأُتِيَ بها. وحَدَّث أبا بكر فأجاز وصيته.

وقال عبد الله بن سلام: أتيتُ أخي عثمان لأسلم عليه وهو محصور ، فدخلتُ عليه فقال مرحباً يا أخي ، رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة[1] ـ وهي خوخة في البيت ـ فقال: يا عثمان حصروك؟ قلتُ: نعم! قال: عطشوك؟ قلت: نعم ، فأدلى إليَّ دلواً فيه ماء فشربتُ حتى رويت حتى إني لأجدُ برده بين ثديي وبين كتفي. وقال لي: إن شئتَ نُصرتَ عليهم وإن شئت أفطرت عندنا ، فاخترتُ أن أفطر عنده.

فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه.

«وذكر عن أبي محمد عبد الله التعايشي عجباً. . .

فمن نوادره أن امرأة عجوزاً من الصالحات توفيت ولامرأة عندها سبعة دنانير وديعة. فجاءت إليه صاحبة الوديعة وشكت إليه ما نزل بها وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبتها ، ثم عادت إليه من الغد فقال لها: تقول لك فلانة: عدّي من سقفِ بيتي سبع خشبات تجدي الدنانير في السابعة في خرقةِ صوفٍ ففعلتُ ذلك فوجدتها كما وصف لها.

قال علي بن أبي طالب القيرواني العابر: أخبرني رجل لا أظن به كذباً: استأجرتني امرأة على هدم دارٍ لها وبنائها بمال معلوم. فقالت: والله مالي إلى هدم هذه الدار من حاجة ، لكن أبي مات وكان ذا يسار كثير فلم نجد له كثير شيء ، فخلتُ أن ماله مدفونٌ ، فعمدت إلى هدم الدار لعلّي أجد شيئاً. فقال لها بعض من حضرنا: لقد فاتك والله ما هو أهون عليك من هذا. قالت: وما هو؟ قال: فلان تمضين إليه وتسألينه أن يبيت

---

(١) الخوخة: هي الكوة في البيت ، أو هي الباب الصغير في الباب الكبير.

قصتك الليلة ، فلعله يرى أباك فيدلك على مكان ماله بلا تعبٍ ولا كلفة. فذهبتْ إليه ثم عادت إلينا فزعمت أنه كتب اسمها واسم أبيها عنده. فلما كان من الغد بكرت إلى العمل ، وجاءت المرأة من عند الرجل فقالت: إن الرجل قال لي: رأيتُ أباك وهو يقول: المال في الحنية. قال: فجعلنا نحفر تحت الحنية وفي جوانبها حتى لاح لي شقٌّ وإذا المالُ فيه. قال: فأخذنا في التعجب والمرأة تستخفُّ بما وجدت ، وتقول: مالُ أبي كان أكثر من هذا ولكن أعودُ إليه ، فمضت إليه فأعلمته ثم سألته المعاودة. فلما كان من الغد أتت وقالت: إنه قال لها: إن أباك يقول لك: احفري تحت الجابية المربَّعة التي في مخزن الزيت ، قال: ففتحت المخزن فإذا بجابية مربعة في الركن فأزلناها وحفرنا تحتها فوجدنا كوزاً كبيراً فأخذته.

وصَحَّ عن حماد بن سلمة أن الصعب بن جثامة وعوف بن مالك كانا متآخيين. فمات صعبٌ فرآه عوف فيما يرى النائم كأنه قد أتاه. وكان مما قاله: عشرة دنانير استسلفتها من فلان اليهودي فهن في قرني فأعطوه إياها، واعلمْ يا أخي أنه لم يحدث في أهلي حدث بعد موتي إلا قد لحق بي خَبرُه حتى هرة لنا ماتت منذ أيام. فلما أصبحتُ قلتُ إن في هذا لمعلماً. فأتيت أهله. فقال: مرحباً بعوف أهكذا تصنعون بتركة إخوانكم لم تَقْرَبْنَا منذ مات صعبٌ ، قال: فاعتللتُ بما يعتلُّ به الناسُ. فنظرتُ إلى القرن فأنزلته فانتشلت ما فيه فوجدتُ الصرة التي فيها الدنانير. فبعثت إلى اليهودي فقلت: هل كان لك على صعب شيء؟ قال: رحم الله صعباً، كان من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، هي له. قلت: لَتُخْبِرَنِّي. قال: نعم أسلفتهُ عشرة دنانير. فنبذتها إليه. قال: هي والله بأعيانها. قال: قلت: هذه واحدة.

قال: فقلت: هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب؟ قالوا: نعم حدث فينا كذا وكذا ، حدث فينا كذا وكذا. قال قلت: اذكروا ، قالوا: نعم هرةٌ ماتت منذ أيام. فقلت: هاتان اثنتان.

وكثير من أمثال هذه الحوادث.

وأنا أعلم حوادث عدة من هذا القبيل وقعت لجملة من معارفي ، فلو لم تكن أرواح هؤلاء الأموات باقية حية، فمن أخبرَ هؤلاء إذن بما لم يعرفوه؟

إنه لا سبيل إلى الإنكار ولا مفرَّ من الاعتراف بأن الأرواح خالدةٌ حية باقية ، وأنها تتصل أحياناً بأرواح الأحياء كما قد يحدث في النوم.

إنه دليل واضح يقره العقل وتقول به الشريعة ، فما أَضلَّ المنكرين!!

ـ ٧ ـ

تحضير الأرواح[١]

والآن وبعد التحقيقات العملية ، فهل من الممكن إنكار بقاء الأرواح وخلودها؟

لقد أثبت علم تحضير الأرواح خلود الروح وبقاءها.

إن طرق التحضير متعددة ـ كما أسلفنا ـ ، فمنها ما يُسمعك صوتَ الروح المتوفى ، ومنها ما يُريكَ خَطَّهُ وتوقيعه كما تعهده بل وصورته كذلك. بل هناك ما هو أغرب من ذلك كما سبق بيانه.

فعلام تدل كل هذه الأمور؟ أَلا تدل دلالة واضحة لا ريب فيها على خلود الأرواح؟

إن كل شيء قد قضى بذاك ، الشريعةُ والعقل والمنطق وفطرة الإنسان والواقع المشهود وحتى العلم التجريبي، فمن يجرؤ بعد كل هذا أن ينكره؟!

❊ ❊ ❊

---

(١) لقد قلنا رأينا في تحضير الأرواح قبل هذا الموضع.

حداء النفوس

والآن وبعد الذي عرفناه ، ألا ينبغي أن نرجع إلى ربنا ، ونُنِيبَ إلى بارئنا ، بقلوبٍ يعمرها الإيمان؟ ألا ينبغي يا أخي أن نقف على منازل الأحباب ، ونطّرح على الأعتاب ، بقلوبٍ يُجلّلها الخشوعُ ، وعيونٍ تفيض بالدموع ، ونَهيمُ كما يهيم العاشقون ، ونصيح كما يصيح الوالهون .

فَليتـكَ تحلـو والحيـاةُ مـريـرة   وليتـك تـرضـى والأنـام غِضـابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر   وبينـي وبيـن العـالميـن خـراب

أخي يا أخي : لقد جاءتك موعظةٌ من ربك ، فَمَنْ أبصرَ فلنفسهِ ومنْ عَمِيَ فعليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾ [المزمل] .

إلى الله يا أخي ! إلى ربك يا أخي ! اقطع التذكرة ، واسلك السبيل ، وشدَّ الرِّحال ، واعزم المسير ، فالطريقُ موحشة والسفر طويل . . والمنادي يؤذن بالبعاد ، ويهيب بالفؤاد ، ويهتف بالرحيل ، إلى الملك الجليل .

فحـيَّ علـى جنـاتِ عـدنٍ فـإنهـا   منـازلُـكَ الأولـى وفيهـا المُخَيَّمُ

إلينا أيها الغرباء[1] ! إلينا أيها الظاعنون! فقد أَزجينا المطايا وامتطينا المتون .

فحيّ على نور النبوة ، وحيَّ على مصابيح الرسالة ، فقد جَدَّ

---

(١) مبني للاختصاص أي نحن الغرباء .

السالكون ، وأدلج العارفون وإنّا على آثارهم مهتدون .

فوالله لن تحط القافلة الرحال ، ولن تنتهي الآمال وتسكن النفوس إلا في جوار الله سبحانه. فالرحيل! الرحيل!

«ألا مشمر للجنة فإن الجنة لا خطرَ لها. هي وربِّ الكعبة نورٌ يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحُللٌ كثيرة ومقام في أبد ، في دار سليمة وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة ، ومحلة عالية بهية ، ولو لم يكن من خطرِ الجنة وشرفها إلاّ أنه لا يُسألُ بوجهِ الله غيرُها لكفاها شرفاً وفضلاً» .

لكَ الأُسوةُ يا أخي في مصابيحِ الهدى وأئمةِ التقى ، الصحابةِ الأطهار والمشمرين الأبرار ، فقد كان كلَ منهم غزيرَ الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه . .

ويشهد بعضهم على أحدهم(١) فيقول: رأيته وقد أرخى الليل سُدوله وغارت نجومه ماثلاً في محرابه وقابضاً على لحيته ، يتململُ تململَ السليم ويبكي بكاء الحزين يقول: يا دنيا إليكِ عني ، غُرِّي غيري لا تغريني في دهري. أبي تَعرَّضتِ أم إليَّ تَشَوَّفتِ؟ هيهات هيهات قد بَاينتُكِ ثلاثاً لا رجعة لي إليك ، فعمرُكِ قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير. آه من قلةِ الزاد وبُعْدِ السفر ووحشة الطريق» .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ [الانفطار] .

يا أيها الإنسان ما غرك بربك. تَعَهَّدكَ برعايته وصنعكَ على عينه .

حتى إذا كنت بِكراً فتياً ، وجَلْداً قوياً ، رأيتك تعلنه المحاربة وتسعى

---

(١) هو الإمام علي كرم الله وجهه .

بها بين الناس ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس].

حتى إذا بلغ بكَ الكبر مبلغاً ، غرّك طولُ الأمل وحب البقاء عن العمل ، ورضيتَ أن تكون مع الخوالف ، وقد غدتْ أيامك كرمادٍ اشتدت به الريحُ في يوم عاصف.

كل امرئ مصبَّحٌ في أهله والموتُ أدنى من شراكِ نعله

فإذا وَخَطكَ الشيبُ ، ونَعبَ فوقك غرابُ البين ، وقد دنت منك ساعةُ الموت ، وقد أُخذتَ ولا فَوْت.

لَعمركَ ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حَشرجتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق].

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق].

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة].

حتى إذا لوّحَ إليك الموتُ بيديه ، وتناولك بكفيه ، وغيّبك في اللحود ، وأصبحتَ طيفاً تُنسيه الأيام ، وذكراً تُبليه الأعوام ، وصرت في العصور الخوالي ، والرسوم البوالي ، «فلا ينفعُ أن تقولَ نفسٌ يا حسرتا على ما فرطتُ في جنب الله».

كأنْ لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص].

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج].

لقد كان في قصصهم عبرة ، وأيّ عبرة تَستدرُّ المآقي وتكسر النفوس للوارث الحي الباقي.

نَاء الدهرُ عليهم بكلكلهِ ، وأسبلَ عليهم أستاره وحجبهم في ظلمات القرون.

فليتَ شِعري متى يفهم الناس؟ ألا ليتَ الناسَ يفهمون!

أين الملوكُ ذوو التيجان من يمنٍ ... وأينَ منهم أكاليلٌ وتيجانُ
وأين ما شاده شَدَّادُ في إرم ... وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مَردَّ له ... حتى قضوا فكأن الكلَّ ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن مَلك ... كما حكى عن خيالِ الطيف وَسْنان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوماً ولا ملكَ الدنيا سليمانُ

أيْ أخي يرحمك الله : ألم يَأْنِ للذين آمنوا أنْ تخشع قلوبُهم لذكرِ الله وما نزلَ من الحق؟ ألم يأنِ أن تخشع القلوب؟ ألم يأنِ أن تُناجي مولاكَ في روعة السكون ، وهَدْأةِ الجفون ، وقد أرخى الليلُ الإزار وأسبل الستار «فإن الله خلق ريحاً تهبُّ بالأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار».

إلهي أغلقتِ الملوكُ أبوابها وبابُكَ مفتوح للسائلين. إلهي نامت العيون ، وهدأت الجفون ، وأنت الحيُّ القيوم.

إلهي! ها أنا أطرق إليك أبواب السماء فلا تَردَّني خائباً ، وأضرعُ إليك بالدعاء فلا تردني صفراً يا رب العالمين.

اللهم يا خيرَ مأمولٍ ويا أكرمَ مسؤول انقطعَ الأملُ إلا منك والرجاء إلا فيك.

إلهي! أنا العبد الفقير والخادم الأجير وأنت اللطيف الخبير. فالطفْ بي لما تشاء إنك على ما تشاء قدير.

إلهي! أنا الذي أمرتني فقصَّرت، ونَهيتني فعصيتُ، فلا حولَ ولا قوة إلا بك والأمر منك وإليك.

سبحانكَ ربي لا إله إلا أنتَ وحدك إني كنت من الظالمين.

إلهي! إليك أشكو ضعف القوى، وغلبة الهوى، فلا تؤاخذنا بوساوس النفوس يا أرحم الراحمين.

إلهي! ها أنا أدعوك والناسُ نيام وأُناجيك والخَلِيُّون هاجعون، وأنت أعلم بسِرِّي وجَهْري لا يَخْفَى عليك شيء من أمري.

اللهم يا عالم السر والنجوى وَفِّقنا لما فيه خيرنا وطاعتك يا رب العالمين.

إلهي! سيِّدي! إنك قلتَ وقولُكَ الحق ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة] فها أنا أدعوك باسمك العظيم وبسلطانك القديم أن تُحَرِّكَ سواكنَ القلوب وتُحيي مواتَ النفوس.

اللهم يا أنيسَ المستوحشين ويا حبيبَ العارفين ويا ربَّ العالمين آنِسْ وحشتي وارحم غربتي يوم يعزُّ الأنيس ويُفقد الجليس يا الله!

اللهم إنا منك وإليك فلا تُخزنا يومَ العرض عليك. ولا حول ولا قوة إلا بك. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

* * *

هذا الكتاب يضم بحثيـــن قيمين: الأول عن الإيمان بالله، وحاجة النفس إلى الإيمان والأدلة العقلية على ذلك.

والثاني عن الإيمان باليوم الآخر، وإثبات وجود الروح وأدلة وجودها وعن الحياة بعد الموت.

ويتميز الكتاب بأسلوبه الواضح الجذاب فهو يخاطب القارئ بلغة العصر الحديث وبأدلة العصر الحديث مما يجعله أكثر مصداقية للقارئ المعاصر.



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com

